الخطاب الثقافي

مفهوم الثقافة مفهوم واسع التداول. وكل ما يتسع تداوله تكثر التباساته، وتتباين التصورات حوله؛ وكأن شدة الظهور تشكل مصدراً لبزوغ الخفاء!.

وسيكون في إمكاننا أن نشير إلى مدلولين أساسيين لكلمة «ثقافة» مدلول يجعل الثقافة شيئاً مرادفاً للمعرفة، فنحن حين نقول: الثقافة الفقهية أو التاريخية أو التربوية، لا نعني في الغالب أكثر من مجموعة من المعارف المنظمة والمؤطرة بإطار معين. وهكذا فكلمة مثقف بهذا الاعتبار نطلقها، ونريد بها الفقيه والمؤرخ والفيزيائي.. إنه شخص تبحر في علم من العلوم، فاستحق هذا اللقب.

المدلول الثاني هو ما بلوره «الأنثروبولوجيون» في العصر الحديث حيث صار العلم والمعرفة من مكونات هذا المدلول. إن الثقافة صارت تعني ذلك الكلّ المعقد من العقائد والأفكار والمفاهيم والأخلاق والنظم والأزياء والعادات والتقاليد والذكريات والتعبيرات والإبداعات والتصورات السائدة في بقعه مسكونة ومحددة من الأرض. إنها عبارة عن جو كامل، يتنفس فيه الإنسان، ويتشبع بمعطياته ورموزه ودلالاته المختلفة دون شعور منه. هذه الثقافة تجعل أصحابها بمثابة أمة أو مجتمع متجانس، له مرجعيته وطموحاته وهمومه المشتركة. والحقيقة أن ثقافة الأمة بهذا المعنى تشكل مكمن ذاتية الأمة والمعبِّر الدقيق عن شخصيتها. وحين تصعد أمة من الأمم، فإن ذلك الصعود يتجسد في صعود ثقافتها وجاذبيتها. كما أن انحطاط أي أمة يعني انحطاط الأنساق المكونة لثقافتها أو انحطاط معظم تلك الأنساق. هذا يعني أن الخطاب الثقافي هو خطاب يهتم بالحياة العامة للناس بكل تفاصيلها ودقائقها، لكن مهما كانت القضايا الفكرية والإصلاحية والتعليمية والتربوية راسخة في اهتمامات صنّاع أي خطاب،

فإن المتوقع أن يركز الخطاب الإسلامي المنشود على هذه المسائل، وأن يقدم فيها رؤى جديدة ومؤصلة. إذا أردنا أن نحدد معنى كلمة «مثقف» من أفق المدلول «الأنثروبولوجي» للثقافة، فإننا سنواجه العديد من الصعوبات، وعلينا أن نتحلى بشيء من الجرأة والمجازفة. وفي هذا الإطار يمكن القول: بما أن الثقافة عبارة عن مركَّب كلي فإن أليق الناس بلقب « مثقف » هو ذلك الشخص الذي يمتلك رؤية كلية حول واقع الأمة، وما يمكن أن يكون عليه مستقبلها. إنه يفقه سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق، ويعرف الكثير عن طبائع الأشياء؛ ولا سيما الطبيعة البشرية، كما يعرف الكثير من العلاقات التي تربط بين جوانب الحياة المختلفة، ويعرف ما يمكن أن يحدثه النجاح في المجال السياسي ـ مثلاً ـ من آثار في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. كما يعرف الأضرار التي قد تلحق بالجانب التربوي ـ مثلاً ـ في حالة الإخفاق في المجال الاقتصادي أو السياسي. وهو مع هذا يجمع بين العلم والكفاءة المهنية.

وكل هذا يظل محدود التأثير في وضعيته ما لم تكن اهتماماته تتجاوز حدود مصلحته الخاصة، لتشمل مصلحة الناس حوله ومصلحة المجتمع الذي يعيش فيه. وإذا تأملت في هذه الشمائل والصفات التي تحدثنا عنها، فإن مدلول كلمة « مثقف » اليوم قد يكون قريباً من مدلول كلمة «فيلسوف» التي كانت تستخدم أيام حضارتنا الإسلامية الزاهية على نطاق واسع. إذا صح هذا التوصيف للمثقف، فهذا يعني أنه لا يختلف كثيراً عما نطلق عليه اليوم لقب «مفكر» إلا أن هذا الأخير يبدو حسب العرف الشائع وكأنه أرفع مقاماً، أو أنه مثقف من الدرجة الأولى. والحقيقة أن غموض مدلولات كلمة «مثقف» أسهم في غموض أدوات تكوينه وغموض الدور الذي يمكن أن يقوم به والرسالة التي يمكن أن يبلِّغها، كما أدى إلى وجود نوع من التوجس الخفي من قدرته على العمل داخل إطار الضوابط والأصول والثوابت الشرعية. وزاد في ذلك غموض اللغة والمصطلحات المتداولة بين المفكرين والمثقفين إلى جانب ما نراه

من جرأة الطرح ـ في أحيان كثيرة ـ بسبب ضعف الثقافة الشرعية لدى كثير ممن يقومون بالتنظير لحلول المشكلات التي تواجه الأمة. لهذا السبب وأسباب أخرى يمكن القول: إن الخطاب الثقافي الإسلامي يحتاج إلى المزيد من العمق والتركيز ولولا قوة الأصول التي يرتكز إليها ولولا حب الجماهير المسلمة لكل ما يتصل بدينها من بيان وقول لفقد هذا الخطاب الكثير من قدرته على التأثير في الناس وتحفيزهم. ولهذا فإن الخطاب الثقافي الإسلامي يشكل أهمية بالغة بسبب أنه من الحلقات الضعيفة في سلسلة الخطابات الإسلامية المعاصرة. وهذا التجديد ينبغي أن يشتمل على زيادة وعي صناع الخطاب الإسلامي بطبيعة الطرح الثقافي الموجود الآن في مختلف الساحات: الليبرالية والقومية والعلمانية.. وزيادة وعيهم بالرؤية الإسلامية في مسائل التغيير والتحديث ومسؤوليات المثقف ووسائل التقدم، وكل ما يعد من قبيل مشكلة المثقف مع نفسه وأفكاره وعلاقاته. إن تجديد الخطاب الثقافي الإسلامي يعني التجديد في صياغة الخطاب وترتيب مقولاته وتعميق رؤاه وتحليلاته وتعليلاته، كما يعني زيادة بصيرة المثقف المسلم بطبيعة المجال الثقافي نفسه وما فيه من تأزمات ومشكلات وتداخلات مع المجالات الأخرى. وهذا في الواقع موضوع كبير جداً، ويحتاج إلى كتاب مستقل.

النقد الثقافي:

قلنا إن الثقافة كلّ مركب من عدد كبير من العناصر، وليست العقائد والأفكار سوى جزء من ذلك المركَّب. وهذا الجزء حين يدخل عليه شيء من التطور، فإنه يتم غالباً بطريقة واعية أو شبه واعية. أما الرموز والصور والتقاليد والتعبيرات فكثيراً ما تتطور بطريقة غير واعية. إن الله ـ جل وعلا ـ بعث الرسل ليوضحوا للناس الطريق الذي يفضي بهم إلى سعادتهم. وكان المفترض في المسلم الذي أعلن إسلاس قياده للعقيدة التي يؤمن بها أن يجعل من تعاليم الشريعة شيئاً مهيمناً على عواطفه ونوازعه

وسلوكاته، وشيئاً يؤطر حركته وردود أفعاله، لكن الذي ثبت أن الأمور لا تمضي على هذا الوجه حيث تعود الناس أن يجعلوا ثقافتهم شيئاً أكبر من دينهم. إن لهم أمزجتهم وعواطفهم ومصالحهم، كما أنهم يعانون من القصور في نظم الفهم لدينهم، كما يعانون من القصور في فهم الواقع واختيار السلوك الذي يلائمه. هذا كله بالإضافة إلى أشياء أخرى يجعل الثقافة بالمفهوم «الأنثروبولوجي» لا تتطابق مع الثقافة الإسلامية التي يمكن أن نطلع عليها في التخصصات الشرعية المختلفة. وهذا التباين لا يؤسس لمشروعية النقد الثقافي فحسب، وإنما يجعل منه شيئاً جوهرياً بين مهمات المثقف وواجباته الحضارية. إن الثقافة تمنح المثقف نوعاً من الريادة الاجتماعية، وإن عليه مقابل ذلك أن ينصح للأمة، وأن يساعدها في تحسين أوضاعها. بعض صناع الخطاب الإسلامي حين يعمدون إلى نقد الواقع الثقافي، يتخذون من الماضي ومن المعطيات التراثية مرجعية وحيدة، وكأنهم يريدون للمسلم الذي يعيش اليوم في بيئة معقدة غاية التعقيد أن يرتب كل أوضاعه على نحو يجعل الحاضر نسخة طبق الأصل عن الماضي. ولما كان هذا غير ممكن، فإنهم يبدون الكثير من الانزعاج من كل ما يقع عليه بصرهم. إنهم يبثون في الناس الحيرة بين ماضٍ لا يمكن استرجاعه، وبين حاضر لا يمكن قبوله!.

بعض صناع الخطاب غير الإسلامي يقعون في الخطأ نفسه حين يعمدون إلى ثقافة الغرب، فيتخذون منها نموذجاً جديراً بالاستعارة والاقتباس، ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث في واقع الأمة بجذوره وخصوصيته ومحدداته. ومن ثم فإنهم لم يلقوا من الأمة إلا النبذ والتوجس والتشكك. إن في إمكان الناقد المسلم أن يقوم بعمله بطريقة أسلس وأجدى من الطرق التي يتبعها غيره. إن نقدنا للثقافة السائدة يجب أن يتأسس على معطيين اثنين:

الأول: هو الثوابت والمبادئ والآداب الإسلامية، وهي في معظم الأمور واضحة بل متألقة.

الثاني: هو مدى ملاءمة الثقافة السائدة في البيئات الإسلامية لمتطلبات القوة والمنعة والعيش الكريم في زمان كثير التكاليف عظيم التحديات. وفي هذا الإطار يمكن القول: إن تأخر الأمة عن ركب الحضارة وعجزها عن القيام بالدور العالمي الذي يليق بها هو بسبب الهوة التي تفصل الممارسة اليومية لمعظم المسلمين عن هدي المنهج الرباني الأقوم في أمور دينهم ودنياهم. والمطلوب ليس أن نتمسك بأهداب الشريعة في المنشط والمكره فحسب، بل علينا أن نؤكد إلى جانب ذلك على القيم والمعاني والأخلاق والآليات التي تمكن الإنسان المسلم من فهم زمانه والاستجابة لمتطلباته وتحدياته في ضوء التزامه بمبادئ دينه. ومن تلك القيم والمعاني والمفاهيم: التضحية، والتعاون، الدقة، الوفاء بالوعد، الإبداع، الاستمرار في بذل الجهد، الانفتاح، تطوير الذات، المبادرة، المصداقية، التعاطف، الرؤية المستقبلية، العدل، إحقاق الحق، نصرة المظلوم... وإذا تأملت في كل ما ذكرناه، فإنك ستجد أنه لا يشكل اليوم ملامح بارزة في ثقافتنا السائدة، مع أنه جزء أصيل من ثقافتنا الإسلامية المستنبطة من نصوص الوحي. كما أنك تجد كثيراً من هذه القيم والمعاني بارزاً لدى أبناء الأمم المتقدمة على نحو لافت. وهذا يزيد في تعقيد المشكلة لدينا، لأن منافسك وخصمك حين يتحلى بصفات كان عليك أنت أن تتحلى بها، فإنه يفاقم التحديات التي تواجهك، ويجعل منافستك أقل تكافؤاً.

من المهم أن ندرك على نحو جلي أن ثقافة أية أمة هي سلاح ذو حدين، فهي قد تكون أداة دفع نحو الأمام، كما قد تكون أداة جذب نحو الخلف. ومهمة النقد الثقافي أن يركز الأضواء على هذا وذاك. وليست هذه المهمة بالمهمة السهلة، إذ إن ملامح المشهد الثقافي تظل متداخلة، كتداخل الألوان في لوحة زيتية، ومن ثم فإنه يظل قابلاً

لقراءات متنوعة مما يتيح لنا الفرصة، لنكون مرنين في أحكامنا إلى أبعد حد ممكن. إن هناك إمكانية دائمة للقول: إن أوضاعنا العامة سيئة جداً، ولدينا بعض الأمور الإيجابية. كما أن في إمكاننا أن نقول: إن أمورنا جيدة، ونعاني من بعض المشكلات. وبين التعبيرين من الفرق كالفرق بين الصحة والمرض. وهذا ليس أسوأ ما في القضية، إنما يقع الأسوأ حين يضع المثقف نفسه في سياق يحول بينه وبين الرؤية الموضوعية للأشياء. ومع أن ذلك السياق يتجلى في العديد من الأمور، إلا أن أشدها خطورة هو ذلك السياق الذي يجعل من المثقف حليفاً للمستفيدين من الأوضاع القائمة أو عدواً لهم. إن المثقف يفقد في الحالتين الأهلية للقيام بدوره الأساسي، وهو إنتاج الفكر وصناعة المعرفة سعياً إلى إيجاد واقع فكري جديد من خلال إنتاج نماذج جديدة للتقدم والارتقاء، ومن خلال كشف نماذج التفكير السائدة. إن المثقف حين لا يحشر نفسه في مربع «مع» أو «ضد» يستطيع أن يرى كل جوانب الصورة، وبذلك يكون في إمكانه المساعدة على اتخاذ القرار في ضوء المعرفة والخبرة، كما يستطيع أن يحد من انتشار الاستبداد والطغيان. وقد رأينا كتاباً ومفكرين ومثقفين يفقدون دورهم الإرشادي والإبداعي حين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا جزءاً من جهاز «أيدلوجي» يكيل المدائح، ويضخم الحسنات، أو يكيل الشتائم، ويبحث عن العثرات. إن القيام لله ـ تعالى ـ بالقسط والعدل يتطلب منا أن نترك مسافة فاصلة بين انتماءاتنا الحزبية والسياسية والتنظيمية.. وبين حقل التنظير لواقع الأمة، ولما عليها أن تفعله.

السؤال الذي يقلقني، ولا أجد له إجابة شافية، هو كيف ننقد ثقافتنا دون أن نشعر أننا نجلد ذواتنا، وأننا نطفئ جذوة الأمل في نفوسنا؟ القضية معقدة للغاية؛ حيث نشعر على نحو دائم أن النقد لا يؤتي ثماره إلا إذا اتخذ شكل الصدمة الكهربائية، وحين يتم ذلك فإننا نستخدم كل التعبيرات التي توحي بأننا قد بلغنا القاع، أو كدنا، وأن لدينا من السوء ما ليس لدى أي أمة أخرى!.

أظن أن مما يفيد في هذا الشأن أمرين:

١ ـ لن نكون على صواب إذا قلنا: إن ثقافتنا السائدة هي ثقافة تدهور، أو إذا قلنا: إننا في أسفل سافلين، أو بلغنا نقطة «اللاعودة» إن هذا كله غير صحيح، فنحن إذا اتخذنا أحكام الشريعة وآدابها أساساً في التقويم، فإننا سنجد أن في الأمة رجالاً ونساء وشباباً في أعلى درجة من الخيرية والصلاح وتحمل المسؤولية. وهؤلاء وإن لم يكونوا كثيرين، لكنهم موجودون. وهناك آفاق لارتفاع نسبتهم في الأمة. ولا ينبغي لأحد أن يقول: إننا في أسوأ حال؛ لأن الأسوأ لم يقع لدى أي أمة، إذ ما من حالة سيئة موجودة إلا وهناك إمكانية لأن يقع ما هو أسوأ منها. والحقيقة أن المتأمل في تاريخنا وأوضاعنا الحاضرة يجد شيئاً لافتاً للنظر وهو أننا في كثير من الأحيان لا نستطيع فعل الأفضل، لكن لا يقع لدينا الأسوأ. وهذا بسبب العقيدة والخيرية الموجودة لدى كل مسلم وبسبب وجود نسبة من الرجال الجيدين الذي يجمعون بين التدين والتفوق في أعمالهم.

٢ ـ إن كثيراً من جلد الذات يقع بسبب طبيعة الإدراك الذي نعتمده في الإمساك بالواقع. إننا حين نكوِّن انطباعات عن الواقع بواسطة التمثل الذهني والتصور المجرد نكون قد أسلمنا عقولنا لأهوائنا ورؤانا العابرة. وهذا كثيراً ما يحدث بسبب عدم وجود أرقام دقيقة، تساعد في «عقلنة» الأحكام التي نصدرها حول الواقع. صحيح أن اللجوء إلى المعلومات والأرقام والاستنباط من الواقع كثيراً ما يكون للتعويض عن فقد الرؤى الكبرى، إلا أنه على كل حال يساعدنا على ألا نقع فريسة لأمزجتنا المتقلبة وخبراتنا المحدودة. حين نقول: إن الذين يدخنون من المراهقين في مجتمعنا هم في حدود ٢٠٪. وحين نقول: إن الذين يصلون الصلوات الخمس في المسجد هم في حدود ٣٠٪... فإننا بهذا نولّد نوعاً من التحفيز لعمل شيء يدفع بهذه النسب في الاتجاه المرغوب. كما أننا من خلال المعلومات المحددة نتمكن من مقارنة ما لدينا بما لدى غيرنا لنرى الموقع الذي نحتله على الخارطة العالمية في مختلف شؤوننا.

في أحيان كثيرة يكون الإحساس بالداء قوياً بسبب رؤيتنا لأحوال العالم من حولنا. إن من السهل علينا أن نقارن أخلاقتنا وعاداتنا ومكتباتنا وجامعاتنا بما لدى الآخرين من نظائرها. وتلك المقارنة تعطينا جواباً فورياً بتفوق ما لدى الآخرين وملاءمته للحياة الحضرية المعاصرة. لكن حين نصل إلى توصيف الدواء، فإننا سنجد أن ما يستخدمه العالم الصناعي والمتقدم عموماً من أساليب في حل مشكلاته قد لا يكون فعالاً في معالجة مشكلاتنا، وذلك بسبب الخصوصية الثقافية وبسبب اختلاف الأولويات والمداخل لدى الجانبين. ومن هنا فإن من يمارس النقد من صانعي الخطاب الإسلامي وغيرهم يجدون أن توصيف الداء أسهل بكثير من توصيف الدواء. والحقيقة أن النقد بوصفه حديثاً عن المآسي والانكسارات يظل شديد الإغراء، لأنه يعطي صاحبه تفوقاً فورياً، على حين أن الحديث عن الحلول يستقبل غالباً بشيء من البرود لأن البناء يحتاج إلى وقت طويل حتى يظهر صواب المقترح لخططه. كما أن معظم الحلول المقترحة يكون في العادة قابلاً للتنفيذ والجدل. حتى لا نتحول من أطباء معالجين إلى جلادين، فإن علينا أن نغني ثقافة الممكن من خلال نشر الكثير من الحلول وعرض الكثير من البدائل، ومن خلال دلالة الناس على الطرق المفتوحة، وفتح حقول جديدة للممارسة. وهذا في الحقيقة يتطلب منا أن نقلل من إطلاق الكلمات الكبيرة عن الانحطاط الثقافي والحضاري وعن تدهور الأمة، وندرب أقلامنا وألسنتنا على الخوض في تفاصيل الداء وتفاصيل الدواء، في تفاصيل الأزمة وتفاصيل الخروج منها. وهذا قد يتطلب منا أن نحاول الاطلاع على التجارب الناجحة لدى الآخرين، ثم الاقتباس منها بالقدر الذي يلائم أوضاعنا وأحوالنا.

إذا تقدمنا في هذا المضمار على نحو جيد، فإننا نكون قد قدمنا للأمة خدمات جليلة.

النقد الثقافي عمل كبير وحساس، والذي يقوم به لا يختلف عن الذي يمشي على حبل مشدود، إذ إن عليه أن يكون حذراً من السقوط ذات اليمين على نحو لا يختلف عن الحذر من السقوط ذات الشمال.

ما بين الحداثة والتجديد:

يمكن القول: إن ثقافة أمة الإسلام تعد أكثر الثقافات غنى بالعناصر والأنساق الثابتة. ومع أن في كل ثقافة مسلماتها وبدهياتها إلا أن ارتكاز ثقافتنا على العقيدة الإسلامية وعلى الإيمان بالغيب، ووجود شريحة واسعة تسعى إلى التمسك بالآداب والأخلاق الإسلامية ـ إن كل هذا يجعل تغيير الثقافة السائدة في عالمنا الإسلامي أصعب من تغيير غيرها. بل إن هذه الثقافة تشهد بين الفينة والفينة صحوة وأوبة، تعيد إليها الكثير من ألقها، وتساعدها على تصحيح مسارها. لكن هذا لا ينفي أن في ثقافتنا السائدة ـ كما هو شأن جميع الثقافات ـ عناصر تنفعل بالأحداث الجارية على نحو ما نجده في العادات والتقاليد والأزياء والنظم وطرق التفكير وترتيب الأولويات والتعبير عن الذات وما شاكل ذلك. ومع ثورة الاتصالات والبث الفضائي وتعاظم حركة السفر والانتقال عبر العالم، فقدت الثقافات تماسكها وبطء حراكها الذي كانت تحظى به بسبب العزلة وضعف حوافز التغيير. إن وعي المسلمين ـ وغيرهم مثلهم في هذا ـ بثوابت الثقافة دائماً هو وعي غير كامل وغير عميق. ومن هنا فإن من الممكن دائماً العثور على تبدلات ثقافية، لم تنشأ عن الظروف والتحديات، وإنما نشأت بسبب قصور الفهم لجوهر الثقافة. نحن على سبيل المثال نعرف أن أعظم أركان الإسلام العملية هو الصلاة إلى درجة ذهاب بعض أهل العلم إلى كفر من تركها تساهلاً. ومع هذا ذكر ابن الجوزي ~ عن إعلاء ثقافة بعض أهل زمانه لشأن الصيام والاهتمام به أكثر بكثير من فريضة الصلاة، حيث يقول: وفي زماننا من إذا جلدته حتى يفطر في

رمضان ما أفطر. وإذا جلدته على أن يصلي ما صلى! وهذا ليس نابعاً من اجتهاد فقهي، حيث لم يقل بذلك أي فقيه، ولكنه جزء من ثقافة اجتماعية سائدة. وفي المسلمين إلى هذا اليوم من يهتم بصيام رمضان ولا يهتم بالصلاة لا في رمضان ولا في غيره. وهذا بسبب تركيز المجتمع على الصيام، والنظر إلى الإفطار في رمضان على أنه تعبير عن نقص في الرجولة، أو أنه يعبر عن درجة عالية من المروق من الدين. الثقافات إذن لا تكف عن التجدد والتغير، لكن هذا لا يتم دائماً على النحو الصحيح؛ حيث إن الثقافات تتكون وتتطور بطريقة غير واعية، ولهذا فإن من المتوقع لكل ثقافة أن تتطور خارج مسلماتها وثوابتها. إن كثيراً من صور التعاملات والعقود المحرمة والفاسدة ينتشر بسبب جهل الناس بالحكم الشرعي. وبعضها ينتشر بسبب سيطرة الهوى والسعي إلى الاستحواذ على مكاسب مادية سريعة. كما أن اشتمال الثقافة على عدد كبير من الأنساق يجعل إمكانات التناقض بين تلك الأنساق أمراً وارداً. وعلى سبيل المثال فإن أحكام الشريعة الغراء تمنح لقيمة « الحق » مكانة أعلى من قيمة « الجمال » والظهور بمظهر حسن وجذاب. ومن هنا فإن كل أشكال التجمل ينبغي أن تتم في إطار الحق. واليوم نرى من المسلمات من تأثرن بالثقافة الغربية، وصرن يقدمن قيمة الجمال على قيمة الحق، فهن في سبيل التجمل والإغراء مستعدات لكشف أجزاء من أجسادهن توجب الشريعة السمحة سترها. ولا يلقى هذا من كثير من أبناء المجتمعات الإسلامية أي استنكار!.

من المهم هنا ألا نعطي أي انطباع بأن جمود الثقافة هو شيء حسن أو مطلوب في كل حال، فالحقيقة أننا سنظل في حاجة مستمرة إلى تجديد ثقافتنا، وإعادة ترتيب سلمها القيمي بما يجعلها أفضل قياماً بجوهر التدين وأعظم قدرة على الاستجابة للتحديات المعاصرة. ولا يخفى أن الأمة الإسلامية تشهد بين تيارات من أبنائها العديد من المعارك الثقافية حول ماهية التجديد أو التحديث الثقافي المطلوب. والذي يثير الكثير من الجدل هو شعور الناس بوجود أزمة ثقافية حضارية مستحكمة من جهة، ونظرهم إلى

ثقافة الأمم المتقدمة نظرة انبهار، مما يولد الرغبة في تقليدها، ومحاولة جعل الثقافة السائدة نسخة مشوهة عنها. أما صناع الخطاب الإسلامي فإنهم وإن اتفق بعضهم مع التيارات الأخرى في بعض التفاصيل التحديثية إلا أنهم يرون أن ما يراد تحديثه لا يتصل بما هو قبيل «الفلوكور» أو الأزياء والتقاليد، وإنما يتصل بالعقائد والأحكام الأساسية المتفق عليها. إن الزنا في ثقافة الغرب لا يعد جريمة إذا تم باتفاق الطرفين. وهم لا يرون في الربا وشرب الخمر وأكل لحم الخنزير أي إشكال أخلاقي أو قانوني. وإذا كان التحديث يعني تغيير نظرة المجتمعات الإسلامية إلى هذه الأمور، فإن هذا التحديث للثقافة لا يختلف عن تدميرها في شيء!.

السؤال الذي يطرح نفسه هو: إلى أي حد يمكن أن نتعامل مع المتغيرات الثقافية الجارية الآن على أنها من قبيل التجديد المحمود والمطلوب؟ ومتى يتحتم علينا أن ننظر إليها على أنها من قبيل التحديث الذي لا يمكن قبوله في أي حال؟ لعلي أستطيع تحديد الفروق بين هذا وذاك عبر المفردات التالية:

١ ـ تصاب كل الثقافات بما يمكن أن نسميه «عوالق الاستعمال» حيث إن استعمال أي شيء على نحو مكثف يعرضه للخطأ والتحريف، كما يحدث لو أننا طلبنا من مئة شعب أن يتكلموا جملتين مكونتين من عشر كلمات مدة ثلاثين سنة، فإنك سترى ألواناً من التغاير الصوتي وإعادة التركيب والحذف والإضافة. وهذا بالضبط ما يحدث لثقافة أي أمة. ومن هنا فإن الثقافة بوصفها تعبيراً عن أصول ومبادئ وحاجات وإبداعات وانتصارات وانكسارات ورغبات... لا تحتاج إلى التحديث فحسب، وإنما تحتاج أيضاً إلى التصحيح، حيث إن على الجوانب المرنة والهشة ودائمة التكون في أي ثقافة أن تتناغم مع ما تنظر إليه الأمة على أنه يشكل صُلب وجودها المعنوي، وهو عقيدتها ومبادئها الكبرى وقيمها المشتركة. إن تعريف «الأنثروبولوجيين» للثقافة جرَّد ثقافات الدول المتقدمة من نزعة التفوق والعنصرية التي أضفاها عليها أبناؤها بسبب

الإنجازات التي حققوها. وقد دأبت «اليونسكو» منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية على نشر فكرة تساوي الثقافات، والذي يعني أحقية كل منها بالخصوصية التي تستحق الصيانة. ومع أن الثقافة الغربية ما زالت تشكل مركز جذب عالمي إلا أن الصحيح أيضاً أن الشعوب لا تتخلى عن ثقافاتها بسهولة، إذ ليس من العسير أن تنزع أرضاً من فلاح، أو تجرد شخصاً من حقوقه المدنية، لكن ليس من السهل أبداً أن تغير أفكاره ومعتقداته وأنماط حياته ونظرته للماضي والمستقبل. ولهذا فإنه لا بد أن نتفق على شيئين اثنين:

أ ـ حاجة ثقافتنا إلى التنشيط والتجديد والتصحيح والمراجعة.

ب ـ أن يتم كل ذلك على أرضية مشتركة، قوامها عقيدة الأمة وثوابتها. وهذه القضية لا تقبل المساومة، لأن التساهل في الثوابت، لا يختلف عن التشدد في المباحات والفرعيات. وقد قال ـ سبحانه ـ : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [1] وقال سبحانه: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾ [2] هذا إذا كنا نعتقد أن تجديد الثقافة يستهدف فعلاً خدمة الأمة، وليس خدمة الأجنبي أو التمهيد لغزو ثقافي لا يُبقي ولا يذر. وإن الذي ينظر في كثير من المجلات والجرائد اليوم ينتهي إلى الظن بأن من يريدون تجديد ثقافاتنا، لا يرون فيها أي شيء صالح، وهذا يؤدي إلى تشويش الرؤية، ويزيد في عزلة النخب، كما أنه قد يؤدي إلى إشاعة توترات اجتماعية، نحن في غنى عنها.

٢ ـ نحن إذ ننادي بتجديد الثقافة السائدة نشعر بالحاجة إلى إعادة التوازن إليها.

---

(1) سورة الجاثية: (١٨ـ١٩).

(2) سورة الزخرف: (٤٣).

وفي اعتقادي أن التماس التوازن، يجب أن يظل هدفاً ثابتاً، إذ إن التوازن هو سر الجمال وسر الكمال، وهو في الوقت نفسه المؤشر إلى ما يتوفر لثقافاتنا من عافية وحيوية. وهذه نقطة خلاف بين من يسعى إلى تجديد الثقافة، وبين من يسعى إلى تحديثها. وعلى سبيل المثال فإن كثيراً من صناع الخطاب الإسلامي اليوم يشعرون أن الجانب الروحي في ثقافتنا آخذ في الذبول.ومن ثم فإننا نحاول أن ننشر الوعي بهذه القضية،لأن الصلة بالله ـ تعالى ـ وحبه ورجاءه والخضوع له ومراقبته والحياء منه، تعني شيئاً جوهرياً في التدين وفي السعادة أيضاً. لكن الساعين إلى تحديث الثقافة، لا يعيرون هذه القضية أي اهتمام، وذلك ببساطة لأنهم لا يبدون في الأصل أي حماسة للحديث عن المسائل الروحية، ولا يرون أن إنعاش الجانب الروحي يؤثر في تحسين وضع الأمة وحل مشكلاتها. وهذا الموقف الذي يتبناه معظم المنتسبين إلى التيار الليبرالي والعلماني وكثيرون من المنتسبين إلى التيار القومي، وكثيرون من الذين ينظرون إلى التفوق التقني على أنه مربط الفرس في تقدم الأمة ـ أقول هذا الموقف يشكل امتداداً للحداثة الغربية التي أفرزت الكثير من الإيجابيات، لكنها على المستوى الروحي والأخلاقي، أساءت إلى الإنسان إساءات بالغة. وعلى حد قول أحد كبار علماء الاجتماع الغربيين فإن الحداثة قد دنسَّت العالم، حيث لم يعد هناك شيء مقدس ولا قيم مقدسة، قد أصبح كل شيء يخضع للعقلانية، واعتبرت الأديان ظاهرة ستختفي تدريجياً وإلى الأبد!. والحقيقة أن إهمال الجانب الروحي الذي بات واضحاً، يؤسس لانهيار أخلاقي من الوزن الثقيل، بل إنه يعرِّض تماسك الشخصية الإسلامية المعاصرة إلى خطر محدق. إن تيار البحث عن المتعة واللذة وتيار الارتياح للعبث واللهو يجتاح العالم اليوم، وإن وطأته على أمتنا كبيرة. ومقاومة هذا التيار غير ممكنة عن طريق التنظير العقلاني، لأن من شأن الأفكار الدلالة على دروب النجاة، وليس إيجاد طاقة المقاومة والممانعة. إن فساد الذمم وانتشار الرشوة ونهب المال العام وأشياء أخرى من هذا القبيل لا تعدو أن تكون أصداء مدوية للفراغ الروحي الهائل الذي تشعر به شريحة واسعة من الجيل الجديد. ولا ينبغي لهذا الوضع

أبداً أن يستمر، ولا يصح في حال من الأحوال أن نرى مجتمعاتنا تذوب بين أيدينا ونحن واقفون في حال عطالة تامة، لا حول ولا طول. وأعتقد أن على سدنة الخطاب الإسلامي أن ينظروا إلى هذه المسألة على أنها من المسائل الكبرى في تجديد الثقافة والخطاب الثقافي. ومن المهم أن نؤسس لحوارٍ في هذه القضية مع كل المتهمين بإصلاح الثقافة السائدة وتصحيح الانحراف القائم.

إننا إذا نظرنا إلى الحداثة الغربية على أنها شيء متحول، وأن هناك كثيرين في الغرب يبشرون اليوم بعصر ما بعد الحداثة، وينظِّرون له، فإنه سيكون في الإمكان النظر إلى تجديد الثقافة على أنه ليس شيئاً مضاداً للحداثة، ولكنه يشكل نوعاً من التخطي للحداثة القائمة ونوعاً من التطوير لها. وأظن أن النظرة التحليلية لطبيعة الحداثة وتاريخيها لن تفضي بصاحبها إلا إلى الاعتقاد بمشروعية تجاوز الحداثة أو الانقلاب عليها، إذ إن من الحداثة تجاوز الحداثة أو تحديث الحداثة.

٣ ـ نحن نعتقد أن عملية تجديد الثقافة ينبغي أن تكون عملية مستمرة، وإلا تحولت الأفكار التجديدية مع الأيام إلى « مذهب » لا تزيده الأيام إلا تقادماً. أي إن مفاهيم التجديد وآلياته إن لم تظل في حالة من التجدد المستمر، فإنها مع الأيام تتحول إلى شيء يحتاج إلى تجديد. إنها ترد على أعقابها لتصبح جزءاً من المشكلة عوضاً عن أن تقدم الحلول للمشكلات القديمة. وهذا ما نلمسه لدى الحركات الإصلاحية على امتداد التاريخ. حتى يحتفظ تجديد الثقافة بتألقه وفاعليته، وحتى لا يتحول إلى قوالب جاهزة وجامدة، فإنه يحتاج إلى الآتي:

أ ـ معايشة الذين أخذوا على عاتقهم تجديد الثقافة الاجتماعية للناس ومعرفة ما يجدّ في سلوكاتهم واتجاهاتهم من مفاهيم وأنماط. إن الثقافة بوصفها الأداة التي يستخدمها الناس في الاستجابة لمتطلبات الواقع وتحدياته، لا تكف عن التجدد

والتشكل، فما يراه الناس اليوم شيئاً زاهياً وجذاباً، قد لا يكون في عيونهم كذلك بعد سنة. وما ينظرون إليه نظرة استخفاف أو احتقار قد يتحول مع الأيام إلى شيء يستحق التفكير، ويثير الاهتمام. وكلنا يعرف التبدلات التي طرأت على الثقافة الشعبية في مسألة العرض والشرف، حيث كانت بيئات إسلامية عديدة، تعد ذكر اسم الأم أو الأخت أو الزوجة في مجلس من المجالس في قائمة الممنوعات، ثم تطور الأمر إلى أن تصبح المرأة موظفة في دائرة حكومية أو مؤسسة أو مصنع، تجلس على مكتب ثماني ساعات، ويحيط بها مجموعة من الموظفين الرجال. بل صار بعض البيئات لا يرى مشكلة في استئذان البنت أهلها في الركوب مع زميلها من الجامعة إلى البيت! وهناك ما هو أدهي وأمر. إن تغيير الثقافة يحاط في بعض الأحيان بسرية شديدة، ولا سيما في المجتمعات التي يسيطر عليها هاجس الخوف من الفضيحة، ففي تلك المجتمعات تتغير قناعات وسلوكات وتطلعات مثيرة في الخفاء دون أن يعرف الساعون إلى تجديد الثقافة عنها الكثير. إن الثقافة كائن يتعرض لمثل ما تتعرض له نفوسنا وأجسامنا من صحة ومرض. وكما أن الاكتشاف المبكر لبعض الأمراض ـ كالسرطان مثلاً ـ يعد عاملاً حاسماً في إمكانية إيقاف التدهور وحصول الشفاء، كذلك يشكل فهم اتجاهات الثقافة عند بدايات تشكلها أمراً حيوياً في منع تجذر تلك الاتجاهات وانتشارها. وهذا لا يتم من غير متابعة دقيقة. إن من المهم أن ندرك أن الانفتاح هو المصدر الأساسي لتطوير الأفكار والنظم والآليات، وإن غض الطرف عنه أو الخوف منه يؤدي إلى انحسار عملية التجديد أو تكلسها.

ب ـ أحد الضمانات الأساسية لاستمرار التجديد، يكمن في تحسين استجابة الناس للأفكار التجديدية؛ لأن كل الأفكار والطروحات الثقافية تصبح معدومة الفائدة إذا أعرض الناس عن التفاعل معها والاهتمام بها. والاستجابة الجيدة لا تتم ـ في

نظري ـ إذا لم نستمر في تحسين ظروف الإنتاج الفكري والمادي للناس. إن التعلم المستمر وإدراك أهمية التدريب والتجربة والممارسة من الأمور التي تفتح شهية الناس للتغيير واكتساب أنماط وعادات جديدة وإذا كانوا قالوا بحق: « لا شيء يغري بالنجاح كالنجاح نفسه » فإننا نستطيع أن نقول أيضاً: لا شيء يغري بالتغيير كالتغيير نفسه. إن إصلاح الظروف المعيشية للناس وإصلاح ظروف العمل، يساعد على تحسين الإنتاجية المادية. وهذا يدفعهم إلى الإحساس بالفوائد التي يجلبها لهم التقدم الثقافي، ويدفعهم باتجاه الاهتمام بما يقوله لهم الدعاة والمصلحون وكل أولئك المهتمين بالتجديد. على مدار التاريخ كان الجهل والفقر والبؤس الشديد مدعاة إلى الانحطاط والجمود من خلال توليد اليأس والإحباط والإحساس بانسداد الآفاق، ومن خلال موت التطلعات إلى ما هو أفضل.

ج ـ حماية الذات الثقافية وصونها شرط آخر من شروط عملية التجديد الثقافي. إننا مع إيماننا بالانفتاح والتعددية والاقتباس والتسامح إلا أن ذلك يجب أن يظل مشروطاً بعدم دفع الناس في اتجاه المجهول. إن انتشار المنكرات والفواحش والانحرافات الفكرية الخطيرة، لا يساعد على حماية الثقافة ولا على تجديدها، بل يؤدي إلى تشويش الرؤية الثقافية وتوليد عادات وسلوكات هدامة ومتناقضة، على ما نراه اليوم في العديد من المجتمعات الإسلامية. إن تجديد الثقافة شيء لا ينفك عن حمايتها، وإلا كنا كمن ينفخ في قربة مقطوعة من أربعة جوانب. وقد تبين لنا أن محاصرة الشرور في عصرنا الحاضر يجب أن تتم بصورة أساسية عن طريق نشر الخير وعن طريق الحضور المكثف لأهله في كل مجال مجالات الحياة. ولا شك أنه سيظل للنهي عن المنكر قيمته الأساسية، لكن تقبيح الشر بطريق غير مباشر وإحاطته بالخير، أعظم تأثيراً، وذلك لعدد من الأسباب.

٤ ـ الحداثة تفارق التجديد الثقافي الذي تحدثنا عنه؛ حيث إن معظم المطالبين بالتحديث الثقافي اليوم، اتخذوا من الحداثة الغربية مذهباً موازياً للثقافة الإسلامية. وهم في كثير من الأحيان يعرفون عن هذا المذهب أكثر مما يعرفونه عن خصائص الإسلام والتاريخ الإسلامي!

إن الحداثة حين تتحول إلى مذهب أو « أيدلوجية » تفقد روحها ومعناها بوصفها طريقة في الإبداع والابتكار وأسلوباً في اكتشاف المفاهيم والأفكار ومنهجاً في تجديد الذات، والنظر إلى الأمور من زوايا جديدة. والحقيقة أن الحداثة بالطرح الحالي لكثير من الليبراليين والعلمانيين أخفقت إخفاقاً ذريعاً في تجديد ثقافة الأمة وفي كسب الأنصار لها. وساعدت على إيجاد نخبة تنفي ذاتها الإسلامية بمقدار ما تعبر عن ذات مغايرة؛ كما أن هذه النخبة بدأت تتميز عن جمهور المسلمين مؤسسة لنفسها سلطة أدبية واجتماعية، تقوم على الكبر وازدراء الناس، كما تقوم على القهر والتسلط والاستبداد على نحو ينافي جوهر الثقافة الإسلامية، كما ينافي جوهر الحداثة، ويجافي قيمتها الحقيقية. طرح الحداثيين اليوم عبارة عن تقليد للآخر، وبذلك يكونون قد وقعوا فيما اتهموا به غيرهم من تقليد السلف! أضف إلى هذا أن طرح الحداثة على أنها مذهب أو منهج لحزب، قد أوجد نوعاً من الشرخ في البينة الاجتماعية للصفوة، وساعد على زيادة الغلو على الضفة الإسلامية، حيث لا ينتج الغلو إلا غلواً مضاداً.

٥ ـ لعل أهم الفوارق بين تجديد الثقافة وإضفاء صفة الحداثة عليها يكمن في طبيعة النظرة للثقافة، فصناع الخطاب الإسلامي ـ في الجملة ـ ينظرون إلى الثقافة السائدة، على أنها ترتكز في العديد من أنساقها على الإسلام عقيدة وشريعة. إنها تنطلق مما هو حق مطلق، وهذا يعني أنها تحتاج إلى إصلاح وليس إلى نسف من جذورها، كما يرى الكثير من الحداثيين. كما أن صناع الخطاب الإسلامي ـ على ما هو معروف ـ

ينطلقون في كل نظراتهم الإصلاحية من المنهج الرباني الأقوم بقطعياته ورمزياته وأدبياته. إنهم يفكرون ضمن إطار. أما الآخرون فلهم شأن آخر مختلف. إن تحديث الثقافة لديهم يجب أن يكون في عهدة العقل المتشبع بالمفاهيم والمقولات التي تفرزها التجربة الغربية. وهم ينظرون إلى كثير مما له صلة بالماضي نظرة المذعور!

إن الماضي بالنسبة إليهم مخيف لأنه يقيد حركتهم؛ إنهم يخشون من أن يجدوا أنفسهم مكبلين بالمورثات العقلانية وغير العقلانية. أما الماضي بالنسبة إلينا، فإنه يعني الميدان الذي تفاعل فيه أسلافنا مع نصوص الوحي. ومن خلال ذلك التفاعل تركوا لنا الإطار والحافز والمثال. وهذه الأشياء تبدو في نظرنا مهمة حين يعيش العالم في حاضر بائس في قيمه، فقير بالمرجعيات الأسياسية والعقول العظيمة. إن في إمكاننا القول: إن عدم استناد الحداثة إلى أسس خارجة عن الوعي البشري، هو الذي يحطم اليوم مقولات الحداثة مقولة تلو الأخرى. وربما يصير العالم إذا استمر الأمر على هذه الحال ـ مهدداً بالفوضى التامة. إن من المخيف فعلاً ما نلمسه اليوم لدى الأجيال الجديدة من النزوع نحو التفكير والحركة في محيط ليس فيه أي نظام، أو أي قواعد موضوعية، تجعل ما يقومون به موضع مساءلة أو مؤاخذة. وربما يفضي الأمر بنا وبغيرنا إلى الاعتقاد بأن من فضائل المرء ألا يكون له رأي ثابت ولا موقف محدد ولا هدف واضح. وهذا ما نلمسه فعلاً لدى المتطرفين من دعاة «التعددية» اليوم. إن بعض المتشبعين بالحداثة الغربية باتوا ينظرون إلى كل حماسة دينية وإلى كل انتماء عقدي على أنه تطرف وغلو، يؤسس لعقلية الإرهاب والتدمير!.

الثقافة السائدة في عالمنا الإسلامي بما فيها من علل وتشوهات، قد لا تتمكن من غير تجديد وتنقية من إحداث نهضة حضارية شاملة، لكنها تقدم ـ على الأقل ـ لأمة الإسلام الأمان والحماية من العدمية والشك العام، كما تحميها من التلوث برذيلة اللامبالاة بالعقائد والقيم العليا التي تنشرها العولمة في كل اتجاه.

الخلاصة أن ثقافتنا تحتاج إلى حداثة تنبثق من منهجيتنا، وترتكز على رؤيتنا في الحياة؛ ونحن بهذا التوجه قد نبدو غرباء عن عالم اليوم؛ وهذا شيء يسعدنا، لأنه يمنحنا صفة التفرد التي يشعر بها سباح ماهر وقف على ضفة نهر لمساعدة كل أولئك الذين يمكن للتيار أن يغرقهم. ومع كل هذا فإن ما يعيشه العالم اليوم من تأزم فكري وخلقي، وما يشعر به كثيرون من فقدٍ للاتجاه وتضييع للأهداف الكبرى ـ لا يسوِّغ لنا الانغلاق ولا اليأس؛ ونحن وإن كنا نختلف مع الحداثة والحداثيين في الكثير من الأمور إلا أن علينا ألا نفقد الشوق إلى البحث والاطلاع والاستفادة والاقتباس مما لدى الآخرين، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أولى بها.

صانع الخطاب: المهام والمخاطر:

يواجه صانعو الخطاب من كل الاتجاهات والتيارات ثلاث مشكلات أساسية: مشكلة مع أنفسهم ومعارفهم ومناهجهم وتميزهم، ومشكلة مع الناس الذين يوجهون خطابهم إليهم. أما المشكلة الثالثة فتتمثل في البيئة التي يعملون فيها وفي الضغوط المختلفة التي يتعرضون لها.

وبما أننا نتحدث هنا عن تجديد الخطاب الثقافي، فمن الطبيعي أن نتحدث عن المثقف المسلم بوصفه صانعاً للخطاب.

وأشعر هنا أن علينا أن نتحدث عن أمرين مهمين:

الأول: هو المخاطر التي يتعرض لها صانع الخطاب بسبب نوعية فهمه لثقافته وخطابه أو بسبب نوعية ردود أفعاله على المثيرات والعقبات التي تواجهه.

الثاني: وظيفة المثقف المسلم والدور الذي يمكن أن يضطلع به بوصفه صانعاً لخطاب إسلامي. وهذه مقاربة أولية في هذا وذاك:

أولاً: مشكلة صانع الخطاب مع ذاته:

مضت سنة الله ـ تعالى ـ في عباده أن يكون أسوأ ما يتعرضون له شيئاً من صنع أيديهم ونزعات نفوسهم. ولهذا فإن وعينا ينبغي أن يسلط أساساً ليس على الحجارة التي توضع في طريقنا، ولا على العصي التي توضع في عجلاتنا، وإنما على المشكلات التي نواجهها بسبب قصورنا الذاتي، وبسبب أخطائنا وخطايانا. ومن الملاحظ أن كثيراً من المثقفين يملكون البراعة، ويملكون العدة التي تمكنهم من تصوير أنفسهم ضحية لغيرهم، كما تمكنهم من التنصل من مسؤولياتهم؛ ولم لا وهم الذين يتحكمون في تشخيص المرض ووصف العلاج، كما يتحكمون في بلورة المشكلات وإبرازها وبلورة الحلول لها؟! لكن القيام لله ـ تعالى ـ بالقسط وسمة الإخلاص والصدق التي نفترض توفرها في صانع الخطاب الإسلامي ـ هذه الأمور تشجعنا دائماً على محاولة وضع أحوالنا الخاصة تحت المجهر ومحاولة رؤيتها بقدر من الموضوعية ولعلي أشير هنا على نحو سريع إلى أهم مشكلات المثقف المسلم مع ذاته عبر المفردات الآتية:

١ ـ يواجه صانع الخطاب تحول مهمته التثقيفية والتبليغية من رسالة تملأ العقل والروح، وتشغل البال إلى حرفة أو وظيفة أو مصدر رزق أو التزام أمام فلان وعلان من الناس... إن الذي يصنع الخطاب وهو موقن بشرف المهمة التي يقوم بها وبأهميتها في إصلاح الناس ـ يتكلم ويكتب وهو مشتعل حماسة وحيوية وأملاً. إنه يجعل من طاقته ووقته وقوداً حياً لتحريك المجتمع ودفعه في الاتجاه الصحيح. وإن من شأن هذه الحالة أن تولد الإبداع والفاعلية والاستمرار في العمل. إنه يُظهر قدراً كبيراً من الفرادة والتميز، ويعبر عن تجربة حية وغنية. سيكون الأمر مختلفاً جداً حين يكتب الصحفي لأن لديه عموداً يومياً يجب أن يظهر أمام القارئ عند كل صباح. وقل مثل هذا في خطيب الجمعة الذي ينتظره الناس ليسمعوا منه شيئاً، ولذا فإنه يجد نفسه ملزماً

بالقول. إن الرتابة في هذه الحالة تحل محل التجديد، ويكون العطاء عند حده الأدنى. هذه المشكلة واسعة الانتشار إلى درجة أنها تصلح مفسراً قوياً ـ بين تفسيرات عدة ـ لحالة عدم الفاعلية التي نراها لدى كثير من الدعاة والكتّاب والخطباء. قد يكون لتنشيط حركة النقد الذاتي في بيئة صانعي الخطاب الإسلامي تأثير جيد في تكوين وعي جديد بهذه المسألة؛ لكن سنظل في حاجة ماسة إلى أبطال يرفعون الرايات، ويقيمون النماذج الرفيعة في التأبي على التحول من موقع الرائد إلى موقف الموظف أو المنتفع.

٢ ـ من المخاطر التي تهدد كل صانع خطاب الرغبة في الطفو على السطح وتعجل الظهور أمام الناس بغض النظر عن مدى امتلاكه للمنهج الفكري والعلمي الذي سيستخدمه في بلورة خطابه وبغض النظر عن مدى امتلاكه للأدوات التي سيصوغ من خلالها ذلك الخطاب. هذا التعجل كثيراً ما يتم بسبب الإغراءات الكثيرة التي يقدمها الإعلام، ويقدمها المجتمع لكل من يظن أنه أضحى شخصية عامة. وأحياناً يحدث هذا بسبب عدم إدراك المثقف لمسؤولية التصدي لمهام التثقيف والقيادة الفكرية للناس. المشكلة هي أن صانع الخطاب الناجح يؤثر اليوم في أعداد هائلة من الناس ـ يعدون بالملايين أحياناً ـ وهو عبر رسائله المستمرة يشكل لدى جمهوره اتجاهاً ثقافياً، له محكاته وملامحه ومعطياته، ثم إذا به يكتشف بعد مدة أن مذهبه الفكري أو الإصلاحي الذي بشر به، ونشره يحتاج إلى تعديل وتشذيب. وفي هذه الحالة فإن كثيرين منا يخشون من إدخال الاضطراب إلى جمهورهم إذا ما أدخلوا على خطابهم ما تبلور لديهم من قناعات جديدة، فيلجأون إلى كتم أفكارهم الجديدة في صدروهم، أو يشيعونها في وسط ضيق عن طريق أحاديث المجالس الخاصة. وفينا من لا يأخذ بهذا الاعتبار، ومن ثم فإنهم ينتقلون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، مما يجعل طلابهم وقراءهم عاجزين عن فهم المنهج الذي يسيرون عليه، فتكثر الأقاويل والتفسيرات، ويكثر الغمز واللمز. وكم من

مثقف كان جل حديثه عن انهيار البلد وتفاقم الأوضاع وضرورة الإسراع في الإصلاح. وبعد مدة أخذ يتحدث عن التربية ونشر العلم وصلاح الفرد، وصار إلى جانب ذلك يبحث عن مسوغات للأوضاع السائدة. لا شك في مشروعية التحول والترحال الثقافي إذا تم بناء على قناعات عميقة بعيداً عن الدوافع المصلحية والانتهازية، لكن هذا يجب أن يوضح ويشرح لأولئك المهتمين والمتابعين مع بيان ملامح الرؤية الجديدة وأسباب ذلك الانتقال، مع تقويم للرؤى السابقة.

٣ ـ التحزب أو الانحياز الفكري خطر آخر يهدد صانع الخطاب الإسلامي ـ ولا يختلف صانعو الخطابات الأخرى عنه في هذا ـ إن عظمة الأفكار تكمن في قدرتها على الرفرفة وفي طلاقتها وتعبيرها عن الكرامة الشخصية وعن حرية الإدراك والقرار. وهذه السمات تشكل الأساس الذي نمنح بناء عليه المصداقية للمجتهد والمفكر والداعية. إن المفكر الحر لا يستند في حريته الفكرية إلى التأبي على المساومة والتوظيف من قبل اصحاب المال والنفوذ فحسب، وإنما يملك إلى جانب ذلك المنهج الذي يمكنه من مقاومة التأطير الذي يهدد كل صانعي الخطاب. هناك فرق بين مفكر اتخذ من مبادئه وقناعاته خلفية فكرية وثقافية توجهه وتحركه، وبين مفكر انتسب إلى حزب أو جماعة أو مؤسسة، فأصبح ولاؤه الجديد عبارة عن إطار يتفاعل معه، وينظِّر بما يتلاءم مع أدبياته وطروحاته؛ بل إنه كثيراً ما يشعر أن عليه أن يعمل على توليد الحجج والبراهين التي تؤيد تلك الطروحات والتوجهات، إنه يؤدي دوراً أشبه بالدور الذي كان يؤديه الشاعر قديماً في مديح قبيلته والذب عنها. وهذا يعني أن ذلك المثقف أو المفكر صار منحازاً إلى رؤية جزئية أو اجتهاد فئوي، أو صار معبراً عن مصالح ضيقة لا تتطابق بالضرورة مع المصلحة العامة للأمة. وقد يجد المثقف المؤطَّر نفسه منغمساً في خلافات وصدامات جانبية، تشبه «التهارش» الذي يحدث بين أهل الأهواء، أو بين

المتنافسين على صفقة مغرية! والحقيقة أن التأطير يتجسد في العديد من التحيزات الظاهرة والخفية والصغيرة والكبيرة؛ حيث إن من المألوف أن نجد اليوم من يتشيع لحاضر أجنبي، وهذا التشيع يشتمل على التواصل والفهم والاستنباط والمديح والإعجاب. كما نجد أيضاً من يرى صلاح العالم في انتشار تخصصه وأخذ الناس بإرشاداته. وهذا يدفعه إلى الاستهانة بدور التخصصات الأخرى في إصلاح أحوال الناس. ونجد اليوم بين صانعي الخطاب من يعلق كل توازن الأمة على صلاح الدولة، ومن يعلق كل توازنها على صلاح الفرد، ومن يظن أن صلاح الفرد هو قارب النجاة، ومن يظن أن صلاح الأخلاق وطهارة النفوس هو الذي يحقق النهضة...

إن كل هذه التحيزات تجعل تصنيف صانع الخطاب أمراً سهلاً؛ وإن من شأن التصنيف حرمان المصنَّف من المصداقية في الطرح ومن ميزة شمولية الرؤية. لا بأس أن يتخصص المرء في علم من العلوم، أو يجد نفسه ميالاً إلى اجتهاد أو مذهب في الدعوة أو الإصلاح دون غيره، لكن من المهم أن يكون على وعي بأنه مهدد بالتقزم الفكري والانحسار في الفهم للخريطة الفكرية والثقافية التي يجب أن يدركها، ويستحضرها في تحليله وتقويمه للأشياء. وحين يتوفر هذا الوعي، فإنه سيدفع بصانع الخطاب الإسلامي إلى العمل على التحرر من قيود ثقافته وانتماءاته الخاصة، وذلك من خلال رؤية الأشياء من زوايا متعددة والاستفادة مما لدى الآخرين وتفهم طروحاتهم.

٤ ـ يشعر صانع الخطاب ـ في العادة ـ أنه يملك من الإمكانات الفكرية ما لا يملكه كثيرون ممن يحيطون به. وهذا يحفزه إلى الاعتقاد بأنه يرى ما لا يراه غيره من أزمات الأمة ومن آفاق التقدم المتاح لها؛ كما يولّد لديه الاعتقاد بإمكانية فهم الواقع وإدراك هموم الناس من غير مخالطتهم ومعايشتهم، بل إن بعضنا قد يعتقد أنه يعرف من مشكلات الناس أكثر مما يعرفون عنها. وهذا كله يدفع نحو العزلة، ويولّد مشاعر

صفوية نرجسية فوقية. وقد لاحظنا أن تشكيل ثقافة النخب قد تحول إلى ما يشبه الصناعة المغلقة، فالمثقفون هم الذين يرسمون صور الواقع، ثم يتداولونها بينهم. ويبتكرون الحلول والمخارج، ويناقشونها فيما بينهم، ويذهبون جزءاً غير يسير من جهودهم وأوقاتهم في الرد على بعضهم، وتفنيد ما لا يعجبهم من آراء وطروحات. بعض المثقفين يتكيفون مع أفكارهم، وينكفئون على أنفسهم لاعتقادهم أنهم يعيشون في مجتمعات جاهلة وفاسدة ميؤوس منها. هذا كله جعل كثيراً من المثقفين يشعرون بالاغتراب والهامشية والعزلة، وقد انعكس ذلك على طروحاتهم التعبيرية والإصلاحية، فهي ما بين سوداء ورمادية. ونحن في الساحة الإسلامية نلاحظ ذلك بوضوح، فقد ارتفعت وتيرة الشكوى من سوء الأحوال على نحو لافت خلال الثلاثين السنة الماضية، وتحول كثير من طلاب العلم وصناع الخطاب من التداول للمعلومات الفقهية والشرعية عامة إلى الحديث عن الأزمات والمشكلات والمؤمرات، وعن الطرق المسدودة والانكسارات المدمرة...

إن الشعور بالتفوق شيء يصعب الاحتراز منه، وكون المثقف يرى ما لا يراه غيره صحيح نسبياً، لكن لا ينبغي لهذا وذاك أن يحرمنا من التغذية الراجعة وقراءة ردود أفعال الناس على ما نخاطبهم به، كما لا يصح أن يحجبنا عن سبر الواقع عن طريق الإحصاء واستطلاعات الرأي، وعن طريق المعايشة الفعلية والحوار الموسع مع الناس العاديين المستهدفين بالرسائل الدعوية والتثقيفية. وما دمنا نتحدث عن عزلة المثقف، فلا بد أن نتحدث عن الوجه الآخر للصورة، وهو ضرورة احتفاظ المثقف برؤية نقدية للواقع، وهذا يصبح متعذراً إذا اندمج المثقف في مجتمعه على نحو كامل، كما نشاهده عند كثير من الدعاة الذين لاقوا قبولاً واسعاً لدى الناس، إنهم في معظم أوقاتهم يستقبلون ويودعون المحبين والمستفيدين، أو ينتقلون من مكان إلى آخر، ليعيدوا بث الرسائل التي يشعرون أنهم أجادوا بلورتها. إنه الغرق التام في تفاصيل حياتية متكررة. وهذا أدى في بعض الأحيان إلى

الوقوع في أشياء خطيرة، حيث إن الاندماج الكلي في الناس، يولّد قابلية مسايرة الانحراف وغض الطرف عن الأخطاء بسبب الألفة والمودة والعلاقات الشخصية الحميمة التي تنشأ بين صانع الخطاب وبين الناس من حوله. وهكذا فإننا نرى اليوم دعاة يضفون المشروعية الصامتة على كثير من السلوكات الخاطئة من خلال ضعف انتقادهم لها، ومن خلال الانخراط مع أصحابها في معايشة شبه يومية. إذن التحدي يكمن في العثور على نقطة توازن يتمكّن صانع الخطاب من خلالها من تحامي العزلة والغربة والفوقية، ويتمكن في الوقت نفسه من الاحتفاظ بمسافة تحول بينه وبين اندماج وعيه في الأوضاع السائدة والتطورات اليومية. وهذا ليس بالأمر العسير.

٥ ـ إذا عدنا إلى الوراء ستين سنة من الآن فإننا سنجد أن صانع الخطاب الإسلامي كان المثقف الأكثر أهمية على الساحة الإسلامية. إنه يشكل مرجعية موثوقة للناس، ويؤثر فيهم، ويعيش ألوان معاناتهم.. أما اليوم فقد اختلف الأمر على نحو جذري. وهذا الاختلاف يعود إلى وجود خطابات عدة، تنافس الخطاب الإسلامي، وتشوش عليه. كما أن وظيفة الثقافة ـ إسلامية وغير إسلامية ـ قد تراجعت إلى أدنى مستوياتها. بسبب الإعراض شبه العام عن القراءة والاهتمام بالكتاب واتجاه كثير من الناس إلى الثقافة الهابطة. إن الخطاب الإسلامي والخطاب الثقافي النخبوي والخطاب السياسي.. إن كل هذه الخطابات تفقد زخمها وجاذبيتها في كثير من البلاد على سبيل التدرج. والحقيقة أن التغيرات التي حدثت خلال السنوات العشر الأخيرة أتاحت لعموم الناس مجالاً واسعاً للحركة بعيداً عن تأثير صانعي الخطاب عامة؛ وذلك بسبب بروز مؤثرين جدد في الحياة الاجتماعية من خارج الدوائر التقليدية لصناعة الفكر والمعرفة. قد صار لرجال الأعمال والمال والإعلام ومهندسي الحاسبات ومصممي الأزياء ونجوم الكرة والطرب والتمثيل.. حضور قوي ومتابعة شعبية كثيفة، تفوق متابعة رافعي مشاعل المعرفة وموقدي مصابيح الفكر .

هذا كله يعني أن على صانعي الخطاب الإسلامي أن يدركوا حدودهم الجديدة، وأن يعيدوا النظر في المفاهيم والمقولات التي كانوا يدركون من خلالها الواقع العام للأمة. كما أن عليهم أن يدركوا على نحو دقيق ما بقي لهم من دوائر التأثير، ويحاولوا الاستثمار فيها بشكل مكثف، بالإضافة إلى إدراك المسؤوليات الجديدة التي فرضتها التغييرات الإيجابية والسلبية الحديثة. ومن المؤسف أنك حين تلتقي بكثير من صانعي الخطاب الإسلامي تجد أن طروحاتهم ورؤاهم وآمالهم في الإصلاح والتجديد والنهضة بعيدة كل البعد عن اعتبار المعطيات الجديدة؛ لأنهم يفكرون بالطريقة نفسها التي فكر بها أسلافهم قبل قرن!. قد صار لمن كانوا يسمون العامة والغوغاء شأن جديد، تؤثر فيه الأفلام والمطاعم الأمريكية والأذواق والأزياء الأوربية على نحو طاغ؛ ولا بد للخطاب الإسلامي من أخذ كل هذا بعين الاعتبار والتكيف معه على نحو إيجابي.

ثانياً : المهام

إذا أردنا أن نتحدث عن المهام والوظائف التي على صانع الخطاب أن ينهض لها، فإن علينا أولاً أن نبلور الجواب على تساؤل قديم ومشروع، هو: لماذا نتعلم؟ إن المثقف يكتسب أهميته من الثقافة التي يحملها، والثقافة تكتسب أهميتها من مدى التصاقها بالناس ومدى مساهمتها في خدمتهم ومساعدتهم على حل مشكلاتهم.

إذا عدنا إلى سؤال: « لماذا نتعلم؟ » فإن الجواب ـ فيما أعتقد ـ سيكون: إن الإنسان المسلم يكتسب المزيد من العلم والمعرفة من أجل أمرين أساسيين:

الأول: هو الحصول على المعرفة التي تمكنه من أن يؤدي واجباته الدينية، والتي تساعده على القيام بأمر الله ـ سبحانه ـ على الوجه الصحيح.

الثاني: امتلاك المعارف والخبرات والمهارات التي يحتاجها في عيش زمانه بكفاءة

وفاعلية. هذا هو الإطار العام للجهود التي ينبغي على المثقف المسلم وصانع الخطاب بذلها. ولا شك أن هذا التأطير على هذا النحو يشتمل على كثير من التبسيط والتسهيل، فالتعقيدات والاحترازات كثيرة. وهذه إشارات سريعة حول هذه القضية نسوقها في المفردات الآتية.

١ ـ يحسن الناس الظن بالمثقف بسبب تميزه العلمي والفكري، فهو في نظرهم قد حقق نصراً على صعيده الشخصي حين بلغ في العلم والخبرة ما لم يبلغه كثيرون ممن حوله. وهو إلى جانب هذا يعد أفضل دراية بالمشكلات التي تواجه الناس وبالحلول التي يمكن أن تساعدهم على مواجهتها. والمثقف محترم أيضاً لأنه ـ في الغالب ـ أدرى بأصول السلوك الاجتماعي الرشيد وأكثر تفهماً لحقوق الناس وكيفية التعامل معهم. هذه الظنون ـ وأخرى مثلها ـ توجه سلوك المثقف، وتؤطر مواقفه على نحو ما، أي تجعله يشعر بالخصوصية وشيء من المسؤولية. ومن هذا وذاك تنشأ صياغة متفردة لعلاقة المثقف وصانع الخطاب بالناس. وتلك العلاقة، تقوم على الاعتراف بالريادة للمثقف، وتوقع الإرشاد والعون منه لأبناء بلده. والمثقف من جهته يحاول إرسال الإشارة تلو الإشارة إلى استحقاقه للريادة وتحمله للمسؤولية. وحين يتخلى المثقف المسلم عن مسؤولياته الدعوية والتوجيهية والخدمية، فإنه في الغالب يخسر الحقوق الأدبية للريادة، وربما نظر إليه الناس على أنه ضعيف ثقيل على المشهد الثقافي، أو نظروا إليه على أنه يستغل تميزه لتحقيق مصالحه الشخصية، أو أنه متكبر متعجرف أو سلبي غير مبال بما ينتظره أهله وجماعته منه.. وكثير من هذه النظرات صحيح وفي محله. وكثير منها أيضاً مشوب بالمبالغة وسوء التقدير وسوء الظن. وهذا هو شأن البشر في التعاطي مع كثير من الأمور!.

٢ ـ قد يتخذ صانع الخطاب الإسلامي في طروحاته من الفيلسوف والمنظِّر نموذجاً

له، أي يستولي عليه شعور الرجل الذي يرى في التحليل والتعليل وابتكار الأفكار وتحديد المشكلات عملاً عظيماً ومجزياً، لكنه لا يهتم بعلاقة وضعيته الخاصة بما يقول، ويكتب، أي لا ينظر بعين أخلاقه، لمنتجاته الثقافية، كما أنه لا يهتم بموقع كلامه من الناس ومدى تأثيره فيهم. ولا شك ابتداء في أن للتنظير الممتاز والطرح العميق قيمته الكبرى؛ ولا سيما على الساحة الإسلامية، حيث الفقر الملحوظ في الإبداع الفكري؛ لكن لا بد من القول: إن المثقف حين يكون في هذه الوضعية، فإن تفوقه الثقافي لا يغذي التقدم الشخصي لديه على المستوى الأخلاقي والروحي والسلوكي. وقد رأينا نماذج غير قليلة لمثقفين كبار، لم ينتفعوا بعلمهم وعمقهم الفكري، وعليهم الكثير من المآخذ الشرعية وكثير من الملاحظات التي يتنزه عنها كثير من الأشخاص العاديين! ومن وجه آخر فإن الأليق دائماً بالمثقف المسلم أن يقتبس من سمت نبيه ﷺ وهديه في حمل هموم رسالة الإصلاح والتجديد، وتحمّل الصعاب والمتاعب في سبيل أداء الأمانة، ليكون في اهتمامه ومنهجيته وسلوكه امتداداً له، ولم لا والعلماء ورثة الأنبياء. في أعماق الحسّ الإسلامي نوع من التردد في منح المصداقية لكل من يعاني من تصدع بين ما يفعله وبين ما يقوله ويدعو إليه. وهذا التردد مشروع ومفهوم، فالله ـ تعالى ـ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾[1].

٣ ـ أمام صانع الخطاب أسلوبان للتواصل مع الناس: أسلوب المفتي الذي يتلقى الأسئلة من الناس، ويجيب عليها بما يراه ملائماً، وأسلوب المحفِّز الذي لا يقدم إجابات، لكنه يحث الناس على أن يبحثوا عن حلول ومخارج للمشكلات التي يعانون منها. ولا ريب أننا سنظل في حاجة إلى الفقيه المتمكن والخبير التربوي والمستشار المتخصص.. إن لهؤلاء دوراً مهماً في مساعدة الناس على التعامل مع مشكلاتهم اليومية وتساؤلاتهم الثقافية. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل هذا هو الدور الأساسي

(١) سورة الصف: (٢ ـ ٣).

للمثقف أو هو دور ثانوي والدور الأساسي شيء آخر؟ إذا قلنا: إن الدور الأساسي له هو الإجابة على الأسئلة وحل المشكلات الصغيرة المتجددة، فهذا يعني أن دوره صار أشبه بدور العامل في فرقة إسعاف أو فرقة إطفاء. وهذا يعني بالتالي أن تواصله سيكون مع جزء يسير جداً من الناس، كما هو مشاهد اليوم.

في اعتقادي أن الدور الأساسي للمثقف يكمن في محاولة استخدام كل الوسائل المتاحة من أجل نشر أفكاره التي تحث الناس على أخذ زمام المبادرة في التعامل مع مشكلاتهم الشخصية. هناك فرق كبير جداً بين شخص يسأل كل أسبوع أو كل شهر عن مسألة فقهية أو عن صحة واقعة تاريخية أو معلومة، وبين من وضع برنامجاً تثقيفاً لنفسه يطلع من خلاله كل شهر على كتاب، ويبحث عن مصادر التعلم، ويتفاعل معها. منذ أمد بعيد ساد في مدارسنا وحلقاتنا العلمية أسلوب الشرح والتلقين والذي يقوم على دور فاعل للمعلم ودور سلبي للمتعلم. وصار النقاش والحوار محدوداً وغير مرغوب فيه؛ لأنه يعبر عن نوع من التمرد أو عن ضعف ثقة بالمعلم. وقد كان هذا جزءاً من الطابع العام للحركة التثقيفية في معظم البلدان الإسلامية. وقد اكتشف العالم اليوم أن ذلك الأسلوب محدود الفائدة، وأن تعميم الثقافة هو مقياس كمالها. وليس هناك أسلوب أنفع في تحقيق هذا من إيجاد تقاليد ثقافية، يشعر معها الفرد العادي بالمسؤولية تجاه تعليم نفسه وتوجيهها. وهذه القناعة آخذة في الانتشار اليوم على نحو جيد. وليس أدل على هذا من تكاثر العناوين التي تبدأ بـ «كيف»: كيف تقوي ذاكرتك، كيف تسيطر على عواطفك، كيف تستفيد من وقتك، كيف تفاوض... عناوين كثيرة جداً، كلها يدل على ضرورة تحمل الفرد لمسؤولياته تجاه نفسه. ومن المؤسف أن هذا المعنى ما زال محدد الانتشار في دوائر التعليم الشرعي التي تتمسك بالأسلوب القديم في التربية والتعليم والتوجيه؛ مما جعل خريجي تلك الدوائر لا يسهمون في تنمية الثقة بالنفس والملكات الخاصة لدى الجمهور المسلم !

إذا أراد صانعو الخطاب الإسلامي فعلاً إيجاد بيئة ثقافية تحبذ دور المحرض على البحث عن حلول عوضاً عن دور الملقن، فإن عليهم أن يمارسوا ذلك عملياً من خلال تغيير أسلوب التعليم والتواصل السائد اليوم. وهذا التغيير يجب أن يقوم على تعزيز التساؤل والمشاركة والتدريب والتحفيز على الاكتشاف الذاتي والتقليل من محاصرة القارئ والسامع بالتفاصيل والجزئيات التي تشعره بالاستغناء عن التفكير وبذل الجهد في الوصول إلى الحقيقة. لنحاول في أسلوبنا التوجيهي والتثقيفي أن نجعل الناس على أول الطريق، أو نجعلهم يمسكون بأول الخيط، ونحثهم على أن يمضوا بعد ذلك في التفكير والاستقصاء إلى آخر المشوار. ويجب أن نكون مستعدين لتقديم المساعدة كلما اقتضى الأمر ذلك.

٤ ـ من مهام المثقف المسلم ومهام صانع الخطاب الإسلامي أيضاً تنمية الأفكار الإصلاحية الموجودة في الساحة والدفع بها نحو الأمام. ولا يخفى أننا في هذه المرحلة بحاجة ماسة إلى فيض هائل من الأفكار والطروحات والحلول والنصائح التي تساعد الأمة على القبض على مشكلاتها ورؤيتها على ما هي عليه من غير تضخيم ولا تقزيم، كما تساعدها على الوقوف على ملامح الطريق أو الطرق التي يمكن أن تسكلها في اتجاه ما تتطلع إليه. وهذا يتطلب الآتي:

أ ـ الأفكار ليست هي المبادئ والقيم والمثل وبالتالي فإنه لا ينبغي أن نتعامل معها على أنها ثوابت، لا يصح التفريط بها أو التساهل معها، إنها أقرب إلى أن تكون أدوات للفهم وتشخيص الواقع واستشراف المستقبل، كما هو الشأن فيما لدينا من أفكار في تطوير التعليم والنظم الإدارية ومعالجة المشكلات القائمة... الذي يحدث في بعض الأحيان أننا نتعامل مع الأفكار بردود فعل خاطئة على طروحات خاطئة؛ حيث تعودنا الحماسة الزائدة في طرح اجتهاداتنا وآرائنا. وهذه الحماسة توحي لمن يتلقى منا أننا نريد إكراهه على قبولها، فما يكون منه إلا أن يتخذ منها موقف الرافض دون تأمل في مدى

صحتها أو اقترابها من الحق. والحقيقة أن هذه الوضعية إحدى منتجات «الفقر المعرفي» حيث إن البيئات التي يغلب عليها الجهل، لا تفرق في كثير من الأحيان بين الرأي الشخصي أو وجهة النظر الخاصة وبين ما هو من قبيل الثابت أو المتفق عليه. ويكون هناك ميل عام إلى التعامل مع الأفكار الشخصية على أنها الشيء الوحيد المطروح أو الخاطئ أو الخطر.

قد لا يمكن حل هذه المعضلة إلا من خلال وفرة الأفكار والآراء ونشرها على أوسع نطاق، حيث يتمكن الناس آنذاك من المقارنة والترجيح واكتشاف الميزات والعيوب.

ب ـ لنتعامل مع كل الأفكار على أساس أن الأصل فيها القبول، وليس الرد. على شاكلة ما ذهب إليه فقهاؤنا في القاعدة الفقهية الشهيرة: « الأصل في الأشياء الإباحـة». إن علينا أن ننظر إلى كل ما يطرح من آراء ومقترحات على أنه جزء من حرية التفكير والتعبير التي يمتلكها الإنسان. ونستمر في هذا إلى أن يثبت أن هذه الفكرة مخالفة للإجماع أو لما هو معلوم من الدين بالضرورة أو أنها تصادم مقصداً جلياً من مقاصد الشريعة الغراء. وقد كان من دأبه ﷺ أن يستمع للمشركين حتى النهاية قبل أن يبلغهم ما يريد تبليغه، كما ثبت عنه غير مرة. إذا تبين لنا أن الفكرة خاطئة، فمن حقنا أن ننقذها ونخطئ قائلها متحلين بالأدب الإسلامي الرفيع بعيداً عن الاتهام والتجريح. وهذا يتطلب منا خبرة جيدة بالثقافة الإسلامية، ولا سيما العقدي والفقهي منها. وإلا خبطنا خبط عشواء كما يحصل الآن في كثير من المسائل.

ج ـ تبني فكرة أو أسلوب أو رأي أو مذهب وتطبيقه على أنه جزء من برنامج لجماعة أو حزب أو مؤسسة، يعرِّض ما تم تبنيه إلى شيء من التيبس والتحجر، إنه صار جزءاً من الشخصية الاعتبارية لمن تبناه، وبالتالي فإنه يكتسب حماية خاصة وشهرة جديدة. ومن خلال هذا وذاك يصبح نقده وتطويره أمراً صعباً أو مستهجناً. وقد رأيت

مثقفين ينتمون إلى بعض التيارات الإسلامية وقد أعطوا لأفكار تيارهم نوعاً من التقديس، فهم لا يقبلون حولها أي جدل! ولفت نظري غير مرة كيف يبدأ أحدهم بنطق جملة، فإذا بنظير له من تياره، يكمل تلك الجملة، وكأنهما يتعاملان مع مسألة حسابية!.

إذا أردنا النظر بموضوعية لأي فكرة أو طريقة، فإننا سننتهي إلى أن تبني أي جهة ـ مهما عظمت وسمت ـ لها لا يعدو أن يكون ترجيحاً لتلك الفكرة.. على أخرى منافسة لها. وهذا الترجيح كشأن كل ترجيح آخر، قد يكون صحيحاً، وقد يكون غير صحيح. وأعتقد أن الحراسة المشددة على الأفكار تؤدي في النهاية إلى تقادمها وتجعل استمرارها مصنوعاً ومتعسفاً، ثم تسقط فجأة.

د ـ لن نقوم لله ـ تعالى ـ بالقسط والعدل، ولن نكون موضوعيين إذا لم نتمكن من الفصل بين جوهر الفكرة وبين صاحبها. وواقع الحال يشهد أن كثيراً من الناس يعرضون عن مناقشة بعض الأفكار أو الاستفادة منها بسبب أن قائلها شخص يشكّون في إخلاصه أو ولائه أو مصداقيته؛ أي أننا نتعامل مع الأفكار من منظور أخلاقي. وهذا يعبر عن فجاجة عقلية ومنهجية. نحن نؤمن أن الشخص الممتاز قد يقول كلاماً لا يمكن قبوله بحال من الأحوال. كما أننا نؤمن أن شخصاً لا نحترمه، ولا نثق به قد يتكلم بكلام يعد جيداً جداً بكل المعايير. أعرف أشخاصاً كثيرين من عامة الناس وخاصتهم يتوجسون خيفة من المطالعة في كتب غير مسلمين، أو في كتب كتبها أشخاص مصنفون تصنيفاً سلبياً. وربما اتهموا من قرأ فيها بأنه موال لمؤلفيها أو موافق لهم في توجهاتهم... وهذا كله مخالف للرؤية الإسلامية لجغرافية الأفكار. وقد حرمنا بسبب هذه النظرة من الاستفادة من كثير من الأفكار الثمينة والعظيمة التي نحن في أمس الحاجة إليها. وصار المطلوب اليوم أن نغير هذه النظرة بسرعة. ومع أنه طرأ بعض التغيير الإيجابي، إلا أن ما تم بالنسبة لما هو مطلوب يعد قليلاً.

هـ ـ لا بد من إيجاد آليات ومحاضن لتوليد الأفكار على نحو مما يتم في تكثير الأشياء على صعد وفي مجالات مختلفة. إن الأفكار لا تولد دائماً بشكل طبيعي، وإنما تحتاج إلى بيئة وتحريض ورعاية ومتابعة. وتوليد الأفكار يتم على صعيد فردي، كما يتم على صعيد جماعي. أما على الصعيد الفردي، فنحن في الحقيقة في حاجة إلى أن ندرب أنفسنا على التأمل والعصف الذهني، وأن نتعلم كيف ندير حوارات جيدة حول قضايانا الأساسية. وحتى يكون هذا مجدياً، فينبغي أن يكون عاماً ومنتشراً على نطاق كبير. وهذا لا يتم إلا من خلال تقرير مناهج مدرسية وجامعية، يتعرف الطلاب من خلالها على أهمية هذه الأمور، ويتدربون على ممارستها.

أما على الصعيد الجماعي، فإن مراكز البحوث والدراسات هي المكان الطبيعي لتولد الأفكار العملية. إنه لا فكر من غير إنتاج فكري، ولا إنتاجاً فكرياً من غير مؤسسات تحتضنه وترعاه. وأمة الإسلام فقيرة في مراكز البحوث إلى حد الإدقاع . وكان من المأمول من الجماعات الإسلامية والمؤسسات الدعوية أن تعمل على إقامة مراكز بحوث تابعة لها، يكون من شأنها إنتاج المعلومات والأفكار والمفاهيم التي تساعدها في تبليغ خطابها وأداء مهامها، لكن هذا لم يحدث إلا في نطاق ضيق وبمستوى ضعيف. الجامعات والجهات الحكومية أيضاً لم تعط هذه القضية الاهتمام المطلوب. والنتيجة هي ضعف توالد الأفكار وتقادم الطروحات. ونحن جميعاً محتاجون إلى التفكير الجدي في إيجاد حلول لهذه المسائل.

إن ما يمكن قوله حول مهام المثقف كثير. وقد ذكرنا بعضه عَرَضاً فيما سبق من هذا الكتاب، وقد نشير إلى شيء منه لا حقاً.

ثقافة مستقبلية:

الناس مشدودون إلى الماضي لأنهم يعتقدون أنه ثابت ومعروف على نحو يقيني،

لذلك يمكن للمرء أن يستفيد أشياء عديدة من خلال تذكره والتحدث عنه. على حين أن قلة من الناس تعتقد أن في الإمكان معرفة شيء عن المستقبل. ولهذا فإنهم لا يتحدثون عنه، ولا يأبهون كثيراً له. وقد قال أحد الناس يوماً لواحد من أشهر علماء «المستقبليات »: كن مطمئناً فأنت لن تستطيع معرفة المزيد عن المستقبل أكثر من معرفتك في أي اتجاه ستقفز قطة صغيرة قفزتها التالية.

على المستوى الإسلامي فالذي يظهر واضحاً أن المسلم الملتزم التزاماً صارماً يثبت كل يوم أن عقله وروحه مرتبطان بالمستقبل الذي سيصير إليه بعد مغادرة هذه الحياة. ولهذا فإن في الإمكان فهم كل تصرفاته الحاضرة وتفسيرها من خلال ما نعرفه من متطلبات النجاة في الآخرة. وهذا شيء عظيم جداً. ونحن نتمنى أن ينجح كل الناس في التوقف للتأمل في المآل الأخروي والاستعداد له بما يليق؛ لكن الواقع يشهد أن معظم المسلمين ينظرون إلى ما بعد الموت على أنه شيء يستحق التفكير والاهتمام والعمل، لكنهم لا يفعلون من أجله إلا القليل. وسلوكهم اليومي شاهد إدانة لهم. أما ما يتعلق بالشأن الدنيوي فإن شريحة واسعة جداً من المسلمين غارقة في التعامل مع الهموم اليومية لأمور معاشها. والحقيقة أن الإحساس بالمستقبل والسعي الواعي والمنتظم له، يتطلب درجة حسنة من المعرفة ودرجة حسنة من الطمأنينة وراحة البال، وهما ضعيفتان لدى معظم المسلمين، حيث إن معظمهم يشعر بتراكم متطلبات الحاضر وإلحاحها، فيكونون أشبه بالمدين الذي جلس الغرماء على بابه يطالبونه بحقوقهم. إنه لا يستطيع في هذه الحالة أن يفكر في أي بلد سيقضي إجازته السنوية، كما أنه لن يفكر كيف سيؤمن نفقات الدراسة الجامعية لولده الذي يدرس الآن في المتوسط، ولو فعل ذلك لكان بليد الإحساس!.

والآن هذه بعض الملاحظات حول الثقافة المستقبلية:

١ ـ نحن نحتاج اليوم إلى أن يكون الهجس بالمستقبل شيئاً واسع الانتشار، وأن يكون قدر منه شيئاً مشتركاً بين جميع المسلمين. ولا ريب أن التفكير فيما بعد هذه الحياة ينبغي أ تكون له الأولوية المطلقة. ويجب أن يكون الاهتمام بشأن المستقبل الدنيوي فرعاً منه أو مدخلاً إليه. وهذا يحتاج في الحقيقة إلى تشكيل بيئة اجتماعية، تدفع الناس دفعاً في اتجاه التفكير في كل ما هو مستقبلي. وقد يكون مما يساعد في تشكيل هذه البيئة الأمران التاليان:

أ ـ إثراء كل فروع العلم والمعرفة وكل أنواع المهن العلمية وغير العلمية بالأفكار والمفاهيم والتقديرات والتوقعات التي ترتبط بمستقبلها. وهذا لن يتم إلا من خلال اهتمام الباحثين في التخصصات المختلفة. صناع الخطاب الإسلامي يتحدثون عن مستقبله والآفاق التي تنتظره والمشكلات والعقبات التي يمكن أن تقلل من الاستجابة إليه. وطبيب الأسنان يتحدث عن الثورة التي يمكن أن تحدث في ممارسة هذه المهنة، والتطورات التي يمكن أن تسهم في تحسين مستوى المحافظة على أسنان الناس. والصناعي يتحدث عن مستقبل الصناعة في بلده وعن مدى توفر المواد الخام المطلوبة لتقدمها، وعن التدريب والتسويق والمنافسة والآفاق الممتدة أمام كل ذلك وهكذا وهكذا...

ب ـ النماذج العملية التي يقدمها الناس العاديون من خلال نظرتهم للمستقبل. هذا رجل يحلم بتأسيس مصنع كبير لإنتاج سلعة من السلع أو مادة من المواد، ولهذا فإنه منذ خمس سنوات، يجمع المعلومات، ويدرس النظم، ويبحث عن شركاء يسهمون في التمويل. وهو من أجل التفرغ لإدارته خطط للتقاعد المبكر، وقريباً سوف يحال إلى التقاعد. ومن أجل تأمين مساعد موثوق عنده، فقد شجع ابنه على دخول كلية إدارة الأعمال حتى يتأهل لإدارة المصنع في المستقبل...

وهذه أسرة توفر منذ ما يزيد على عشر سنوات ٥٪ من دخلها الشهري من أجل دفع رسوم الدراسة الجامعية لأولادها الذين سيحصل أكبرهم على الثانوية بعد ثلاث سنوات. وهذا طالب أمنيته أن يكون في المستقبل طبيباً، ولهذا فإنه يذهب إلى المستشفى في الصيف لحضور بعض الدورات الإسعافية، ولتقديم الخدمة المجانية لبعض المرضى الذي يحتاجون إلى مؤازرة خاصة، وذلك لعلمه أن كلية الطب لا تقبل إلا من ثبت اهتمامه بهذه المهنة وهكذا..

إن المعارف المستقبلية والنماذج العملية والصور الملموسة، تجعل الحياة العامة مفعمة بالمعاني والمفاهيم والدلالات التي تدفع الناس نحو الاهتمام بالمستقبل، وتمهد لهم الطريق للتعامل معه. وتوفير كل هذا مسؤولية عامة، لا يستثنى منها أحد.

٢ ـ مضت سنة الله ـ تعالى ـ في الخلق أن تكون معظم التحولات التي تتم في حياتنا قائمة على قاعدة من المعطيات التاريخية والحاضرة. وفي ظل الاتصال العالمي الهائل اليوم صار العالم أشبه ببحيرة بحجم غرفة ألقيت فيها حجراً. إن كل ماء البحيرة يتحرك ويضطرب بنسب مختلفة. ومن هنا فإن حركة التاريخ واتجاهات الأحداث العامة لا تتحدد بمنطقة أو حضارة أو ثقافة أو قوة دولية... ولهذا فإنه لا يصح التنبؤ بمستقبل القضايا المتعلقة بشعب من الشعوب في إطار التحولات الخاصة بذلك الشعب. وبناء على هذا فإن الجهود التي تبذل من أجل استشراف المستقبل ليست من أجل رؤيته بصورة محددة ودقيقة، فهذا مما استأثر الله ـ جل وعلا ـ بعلمه، وإنما من أجل محاولة حساب الاحتمالات التي يمكن أن تقع بناء على معطيات معينة. إن علم المستقبليات عبارة عن حقل يقدم فرضيات قريبة من الواقع بشأن المستقبل. وهذا مهم جداً لصانع القرار، لأننا في كثير من الأحيان نرى المعطيات القريبة والمحسوسة، ونبني عليها، ولا نلقي بالاً للأشياء البعيدة عنا أو الأشياء التي لا نشعر بها. إن قراءتنا

المتعمقة للماضي ومحاولات صوغ فرضيات المستقبل، تهدفان إلى شيء واحد، هو: تحديد مسؤوليات الحاضر، أي بلورة ما ينبغي علينا فعله الآن للنهوض بأوضاعنا وحماية مكتسباتنا. وإذا تأملنا في واقع الخطاب الإسلامي فيما يتعلق بهذا الشأن وجدنا الحديث عن المستقبل على أساس الفرضيات والاحتمالات ضعيفاً للغاية، فالناس لدينا يحبون الجزم، ويتشوقون إلى الكلام الحاسم الذي يدعم حالة اليقين لديهم، وليس حالة الظن والشك. ونحن نستجيب لهذه الرغبة، وأحياناً لا يكون في إمكاننا الحديث على غير هذا النحو. وبيئتنا التعليمية والبحثية والتربوية فقيرة بشكل عام في كل ما يدفع إلى النظر إلى المستقبل على أساس تعدد المعطيات الحاضرة. في أمريكا على سبيل المثال صار استشراف المستقبل ودراسته على المدى البعيد وتقدير الفرضيات والتوقعات بشأنه ضمن المناهج المقررة في أكثر من خمسمائة كلية وجامعة أمريكية. وظهر في أمريكا أيضاً في السبعينيات من القرن العشرين مشروع فريد، حمل اسم « مشروع التوعية » وكان ذلك المشروع يهدف إلى تكوين مجموعة من الفرضيات والتنبؤات السنوية حول وضع المجتمع الأمريكي وأحواله خلال خمس سنوات قادمة على الأقل. وتبعاً لذلك المشروع ظهرت مشروعات مشابهة في أوربا. إن هذه المشروعات وأشباهها، تحتاج إلى مراكز للدراسات الاستراتيجية، وهذه قليلة لدينا، كما أنها تحتاج إلى اهتمام من الحكومات والباحثين، وكل هذا ضعيف. ولكن على صناع الخطاب الإسلامي أن يشكلوا أولاً مفاهيمهم حول المستقبل وتطوراته المرتقبة، وحول المنهجيات الجديدة التي يجب اتباعها أو تصميمها من أجل النظر إلى تلك التطورات والتعامل معها. ثم يكون هناك سعي لجعل الصياغة الشكلية للخطاب الإسلامي متناغمة ومنسجمة مع تلك المفاهيم والمنهجيات ومجسدة لها، كما يتم السعي إلى تدريب الناس من خلال الممارسة على التعامل مع خطاب يطرح الاحتمالات، والبدائل، وينشر روح الاحتياط تجاه المخاطر المحتملة.

٣ ـ التفكير في الأمور المستقبلية يقترب من أن يكون نوعاً من أحلام اليقظة، فترتيب الأولويات وتحديد الأهداف، وتصور الحالة التي يرغب المرء في الصيرورة إليها.. كل هذا لا يتم وفق منطق التاريخ، وإنما تبعاً لقدرة التخيل أو قوة الطموح. ومع هذا فنحن جميعاً في حاجة ماسة إلى أن نحلم، ونتمنى، وذلك لأننا مهددون دائماً بأن نعيش من غير أمل ولا تطلع إلى أي مستقبل. إن التفكير الخيالي ورسم الصور الجميلة لنا وللأمة، يحصِّن الطموحات الكبرى ونحن نجابه الإكراهات التاريخية والعوائق والتحديات التي تحد من بلوغ المرامي التي نتطلع إليها في غدنا. ويبدو أن الإنسان يندفع إلى هذا بفطرته؛ والمثقفون المتشائمون هم الذين يسدون هذا الأفق أمام الناس العاديين. يذكرون أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل على بيت فيه مجموعة من الصحابة، فقال: ماذا تفعلون؟ قالوا: نتمنى. قال: ماذا تتمنون؟ فذكروا له ألواناً من مرغوباتهم الخيرة في الحصول على الأجر والثواب وتبليغ دين الله ـ تعالى ـ ونصرته.. فقال عمر: أما أنا فأتمنى أن يكون عندي ملء هذا البيت رجالاً من أمثال سعيد بن عامر الجحمي[1]، فأستعين بهم على تصريف أمور المسلمين.

علينا أن نشجع الصغار والكبار على أن يحلموا، وأن يتحدثوا عن أحلامهم، وعلينا أن نتعود التساؤل: بماذا تحلم يا فلان؟ ولماذا تحلم بهذا على وجه التحديد؟ وهل تتوقع أن حصوله ممكن؟ ومتى سيكون ذلك؟ وماذا عملت له؟ وهل تحتاج إلى مساعدة؟ ولماذا لا تفعل كذا وكذا؟.

حتى يحلم الناس فإن على صناع الخطاب الإسلامي نشر روح الإيجابية وتعزيز الثقة بكرم الله ورحمته وفضله وعوائده في تفريج الكروب وإزالة الهموم. الذين يحلمون بشيء كثيراً ما يجدون حلمهم حافزاً على القيام بالأعمال الجليلة؛ وإذا لم يحصلوا على ما

(1) كان سعيد والياً على حمص، وقد أظهر سوية عالية جداً في العدل والعفاف والزهد.

يحلمون به، فإنهم لن يخسروا شيئاً، بل إنهم يكسبون امتلاء النفس بالبشر والتطلع والترقب للمرغوب. أما اليائسون القانطون، فإنهم لن يكسبوا من ذلك أي شيء، بل إنهم كثيراً ما يضيعون رؤية خير قريب منهم، ويسببون مع هذا وذاك لأنفسهم آلاماً ومرارات لا مسوغ لها.

٤ ـ ينفق كثير من الناس الكثير من الوقت والجهد في إطلاق التخمينات حول ما يمكن أن يحدث لهم ولغيرهم في المستقبل[1]. ويشعرون في معظم الأحيان أنهم بعد كل جولة من التأمل والتوقع والاستشفاف.. لم يحصلوا على أي شيء ذي قيمة، حتى لو كان ما يتوقعونه صحيحاً فإنه لا يدفعهم في أكثر الأمر إلى إعادة ترتيب أوضاعهم بما يتلاءم مع توقعاتهم.

ونحن نرى في الحدس في المستقبل شيئاً جيداً أو مطلوباً في كل حين إلا أنني أعتقد أن الجهد الأساسي ينبغي أن ينصبَّ على تأمين متطلبات المستقبل المشرق. إن الله ـ جل وعلا ـ جعل للنجاح والتقدم أسباباً وشروطاً ومقدمات؛ وعلينا أن نعمل على توفيرها؛ وحين نوفرها فإننا ننسجم مع سنن الله ـ تعالى ـ في الخلق، ونشعر أن حاضرنا هو ابن ماضينا، وأن مستقبلنا هو امتداد واع لحاضرنا. تنمية الثقافة المستقبلية تتطلب من صناع الخطاب ترسيخ مفاهيم التخطيط والعمل المتراكم وضرورة تهيئة الظروف والأسباب وامتلاك الأساليب الفنية التي يجب اتباعها في معالجة كل الأشياء التي علينا معالجتها. ومن هنا يمكن القول: إن حصولنا على مستقبل واعد وعظيم لنا ولأمتنا، يكمن أساساً في ترشيد قراراتنا الحاضرة وسلوكاتنا اليومية وإصلاح العطب في علاقاتنا القائمة. استغلال اللحظة الحاضرة وتوظيف الإمكانية المتاحة هو الطريق

---

(1) من المؤسف والعالم يزداد رسوخاً في التقدم العلمي أن تنتشر صناعة التنجيم وقراءة الكف والفنجان في مختلف الأوساط الاجتماعية، وحين يفعل ذلك مسلم يعتقد أن الله ـ وحده ـ هو الذي يعرف ماذا سيقع في المستقبل، فإن الدلالة تكون خطيرة!!.

السريع إلى المستقبل الزاهر؛ بحول الله وطوله. وإلا فإن من الممكن أن نظل غارقين في الأوهام إلى ما لا نهاية!.

بعض الفلاسفة يرى أن الزمان ينقسم إلى قسمين: ماض ومستقبل. ولا وجود للزمن الحاضر؛ لأننا ما أن نشرع في معالجة أي حادثة حتى تصبح شيئاً من الماضي. وهذا القول على ما فيه من مبالغة إلا أنه يشير إلى أن مساعينا إلى الوصول إلى أي شيء ليست سوى جزء من المستقبل الذي ننتظره.

٥ ـ يمكن القول: إن ألد أعداء الثقافة المستقبلية ثقافة الاستهلاك والإذعان للرغبات. إن الثقافة المستقبلية تقوم على الانشداد نحو المستقبل والعمل من أجله. وهذا كثيراً ما يستلزم الضغط على الميول والرغبات الآنية وحرمان النفس من بعض ما تشتهيه؛ وذلك على مبدأ: « من أحب آخرته أضر بدنياه ». إن من يرغب في توفير شيء من المال لإقامة مشروع ـ مثلاً ـ قد يجد أن ذلك لا يتم إلا إذا قنن إنفاقه، وأجَّل شراء بعض الأشياء، وعلل النفس بشيء يسير...

أما ثقافة الاستهلاك أو الاستجابة للرغبات، فإنها تقوم على أساس الإرواء المباشر للميول والنزعات، كما يفعل الطفل الصغير تجاه كل الأشياء المحيطة به. وكثيراً ما تتجلى هذه الثقافة في الإدمان والعادات المستحكمة. إن المدمن على نوع من الطعام أو الشراب، وإن الذي عود نفسه سلوكاً من السلوكات يجد نفسه مشلول الإرادة أمام ما تعوده وأدمن عليه. إنه يعلم ـ مثلاً ـ أنه قد بلغ الثمانين، وأن الأطباء حذروه من الاستمرار في التدخين، وأنه يشكل خطورة على حياته، ومع هذا فإنه يشعر أن من غير الممكن له أن يتركه أو يفكر في تركه! هذه الثقافة تزداد اليوم عمقاً في البيئات المحطمة، فالدعاية المكثفة لكثير من السلع والمرفهات والفراغ الروحي وانعدام الجدية مع الشعور باليأس والإحباط.. كل هذه الأمور جعلت كثيراً من الناس يظهرون بمظهر

الإنسان الذي ليس له هم سوى اصطياد الملذات والانهماك في البحث عن المسرات بقطع النظر عن الخير الذي يفوت، أو الثمن الذي يدفع!.

ما الذي يمكن أن نفعله حيال هذه الوضعية؟

المسألة صعبة ولا شك، لكن سيظل للتصميم والعزيمة ثمار حلوة، وأعتقد أن مما هو متاح في معالجة هذه المسألة الآتي:

أ ـ كثير من الأخطاء يستمر، ويستفحل بسبب الإعراض عن الحديث عنه. وهذا يعني أن نشجع ثقافة البوح وثقافة الاعتراف. لا أعني هنا بالطبع تشجيع الناس على أن يتحدثوا عن المواقف التي تجرؤوا فيها على ربهم، ولكن أعني تشجيعهم على الاعتراف بمشكلاتهم والصعوبات التي تواجههم في الحياة ونقاط الضعف في ذواتهم. وهذا البوح ليس مقصوداً لذاته، وإنما من أجل إيجاد وعي شخصي واجتماعي بضرورة التغلب على المصاعب وضرورة التوقف عن الاسترسال في الخطأ. الاسترسال في الخطأ هو المشكلة الكبرى التي تواجهها الأمم، حيث يتعلم الصغار من الكبار الأساليب الحياتية الخاطئة. التوبة هي أقوى سلاح يشهره المسلم في وجه إبليس وفي وجه النزوة والرغبة غير المشروعة. وقد أثنى ـ سبحانه ـ على أولئك الذين يعودون إلى الجادة من غير إبطاء ولا تسويف، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[1]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾[2].

---

(1) سورة الأعراف: (٢٠١).

(2) سورة النساء: (١٧ـ١٨).

ب ـ إن انغماس الناس في ثقافة الاستهلاك والإدمان على تلبية الرغبات العاجلة ـ لم يتم بشكل عفوي، كما قد نظن لأول وهلة، فالجهات المنتجة للسلع والخدمات التي يدمن الناس على استخدامها والاستمتاع بها تبذل جهوداً هائلة عن طريق الدعاية والإعلان وشتى أنواع الإغراء كي يتحول أكبر عدد ممكن من الناس إلى كائنات استهلاكية، تستدعي متعاً لا نهاية لها. ولهذا فإن جعل الناس يتحررون من ربقة الحاضر من أجل المستقبل لا يتم إلا من خلال جهد شعبي وحكومي منظم وواسع النطاق. الجهد المقاوم المطلوب يحتاج إلى مؤسسات تحتضنه وتطوره. وأعتقد في هذا السياق أن من الضروري القيام بتشكيل هيئة لقياس «نوعية الحياة» في كل قطر إسلامي، تكون مهمتها مراقبة السلوك الأخلاقي والاجتماعي والغذائي.. للمواطنين وتوجيه ذلك السلوك على نحو يجعله أكثر استقامة وصلاحاً وأكثر انسجاماً مع المعايير الجديدة للحياة الطيبة التي تليق بالمسلم المعاصر. وفي إمكان هذه الهيئة التعاون مع المؤسسات الإعلامية والتربوية في سبيل تأسيس ثقافة مقاومة للعادات والسلوكات السيئة التي تنتشر اليوم بين الشباب والمراهقين على نحو خاص. ولا بد إلى جانب هذه الهيئة من تشكيل عدد كبير من الجمعيات التي تختص كل واحدة منها بمعالجة مشكلة من المشكلات الثقافية والسلوكية، مثل التدخين والإدمان على الكحول والمخدرات والإسراف والتبذير في الإنفاق والبدانة والعادات الصحية الخاطئة والسهر والنوم المتأخر واستخدام المنبهات والمنشطات والتقاعس عن أداء الفرائض وما شاكل ذلك مما ينافي الرؤية المستقبلية، والاهتمام بما هو آت.

ج ـ ينفر الناس في العادة من الأشياء السيئة والمستهجنة في بداية الأمر، ثم لا يلبث وعيهم أن يتكيف معها من باب المسايرة والمجاملة أو من باب اليأس من جدوى المقاومة. ومن هنا فإننا في حاجة إلى تنظيم حملات لمقاطعة الأشياء السيئة في حياتنا،

والتي جعلتنا نغض الطرف عن واقعنا وإن كان فيه إساءة بالغة لمستقبلنا.

وقد أدرك أبناء العالم الصناعي هذا الأمر من مدة بعيدة، وبذلوا في سياقه جهوداً كبيرة، وحققوا نجاحات ليست قليلة. تجد لديهم أحياناً حملة من أجل قضاء أسبوع من غير تلفاز، وذلك من أجل إتاحة الوقت للتأمل والقراءة والتواصل الاجتماعي والقيام بأشياء مهمة مؤجلة. وتجد أحياناً حملة لترك السيارة الخاصة يوماً في الأسبوع وذلك من أجل ممارسة رياضة المشي وتخفيف الزحام في المدن. وتجد حملة لمقاطعة المنتجات التي تحتوي على عناصر معدلة وراثياً، أو استخدمت في إنمائها السموم أو المواد الكيماوية. وتجد أحياناً حملة لمناهضة ضرب النساء أو الأطفال. وأنشأوا « أحزاب الخضر » من أجل المحافظة على البيئة ومقاومة التلوث... حملات وهيئات كثيرة ومتنوعة ومستمرة، تهدف إلى شيء واحد هو إيقاظ وعي الناس ومنعهم من الاسترسال في الخطأ من أجل حياة مستقبلية أكثر أمناً وصحة ورخاء. إذا كنا غير قادرين على إبداع أنماط جديدة من أجل مقاومة الثقافة الزائفة، فلا أقل من أن نتعلم من الآخرين بعض ما ينفعنا. نحن قد نجد أنفسنا بحاجة ـ بالإضافة إلى ما ذكرناه ـ إلى القيام بحملة للتذكير بأهمية صلاة الجماعة وحملة لتوضيح أضرار البدانة وكثرة الأكل في المطاعم وحملة لتوضيح أضرار الإعراض عن القراءة واقتناء الكتاب وحملة لمقاومة الاتجاهات العنصرية والطبقية في المجتمع...

القاسم المشترك في كل ما ذكرناه هو الحرص على الإمساك بخيوط المستقبل من خلال إنقاذ أنفسنا من متاهات الحاضر. وهذا يحتاج إلى تعاون الكل من أجل الجميع.

ومن الله الحول والطول.